طَهارةُ الوِجدانِ
استِعدَادًا لـ
أستاذة أناهيد السميري

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله –عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

اللقاء 1ألقي يوم الثلاثاء 1435/8/12

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله-عزَّ وجلَّ-حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله أن يجعل هذه الثلاثة أيام مباركة علينا وتكون سببًا لصلاح قلوبنا وسببًا لاستقبال رمضان كما ينبغي وكما يحب هو-سبحانه-ويرضى. موضوعنا هو جواب لسؤال دائمًا نتكلم عنه، كيف يستقبل الإنسان رمضان كما ينبغي؟

الجواب: طهارة الوجدان سبب من أسباب استقبال رمضان كما ينبغي. المقصود بالوجدان القلب، وطهارة القلب أمر تفهمه من جهات عدة، وتفهمه من جهة أثره على عبادتك-إن شاء الله-من خلال النقاش الذي سنتناقشه اليوم، نسأل الله أن يبلغنا رمضان.

لقبول العمل شروط، وهذه الشروط تبدو من حال الإنسان في نفس العمل. أي حتى تشعر هل هذا العمل مقبول أو غير مقبول أثناء قيامك بالعمل، هناك صفات لا بد أن تكون في داخل العمل تستشعر من ورائها أن هذا العمل مقبول، وأنك تسير في الطريق المستقيم.

شروط قبول العمل:

1. أن تكون قد بذلت جهدك في تحقيق الإخلاص.
2. وقد بذلت جهدك في متابعة النبي-صلى الله عليه وسلم-في العمل.

الإخلاص لله عمل يقوم به القلب لا يطَّلع عليه إلَّا الله، وقد يمر الإنسان بلحظات لا يستطيع أن يحكم على نفسه هل كان مُخلصًا أو أنه ليس بمخلص؟ فإذًا عندما نأتِ نريد أن نستعد لرمضان ونستقبله كما ينبغي، ونريد أن نشعر أثناء العمل أننا ممن هم بإذن الله مقبولين، نقول: الأمر تام الوضوح لكن تحقيق هذا الأمر فيه الكثير من الصعوبة على قدر وضوحه.

فمعنى ذلك أنك لا تستعد لرمضان إلا بإصلاح قلبك؛ لأن الإخلاص عمل قلبيّ لا بد فيه من نقاوة القلب. وهذا العمل أصعب ما يكون على الإنسان، ففي مواطن كثيرة لا يستطيع أن يحكم الإنسان على نفسه ليس فقط في الإخلاص حتى أنه قارب الإخلاص أو لم يقاربه، ويغفل كثيرًا عن عمل القلب.

نحن نريد أن نتناقش في هذا الأمر الإخلاص وما فوقه، إلى أن نصل إلى درجة الإحسان.

مكانة القلب في الدين:

لابد أن نفهم أن أي استعداد لأي عبادة يجب أن يكون مركز على قلبنا، نحن نحفظ أحاديث كثيرة على مكانة القلب، من أشهر الأحاديث:

- ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))[1].

هذا النص يقول لك خبرًا يجب أن تكون فطنًا وقت سماعه، الخبر يقول: هل تريد إصلاح بدنك الذي يصوم والذي يقوم، وعينك التي تنظر إلى القرآن ولسانك الذي يقرؤه، تريد إصلاحه؟ أصلح قلبك؛ لأن هذه المضغة:

إذا صلحت؛ صلح البدن وأطاع.

وإذا فسدت؛ فسد البدن وعصى.

إذًا القلب له مكانة عظيمة في الشريعة، فهو بمثابة الملك فإمَّا:

- ملك له سلطته على البدن.
- أو البدن خرج على الملك وأصبح البدن هو الذي له السلطة.

مثلا يؤذن الفجر الساعة 4:12، فتحت عينك الساعة 3:30، الآن قلبك الذي فيه إيمان يقول لبدنك: هيا قم هذا الثلث الأخير من الليل، اكسب هذه الساعة وادعُ وأنت تعرف فضله، وبدنك يقول لقلبك: غفوة بسيطة، فتحصل حالة من الصراع بين الملك وبين الجنود، من ينتصر؟ على حسب قوة القلب:

إن كان القلب ضعيفًا؛ ستأخذ غفوة وربما ذهب وقت الفجر!

وإن كان الملك قويًّا ونقيًّا؛ سيفزع البدن مؤتمرًا بأمر القلب.

تأتي تصوم كل اثنين وخميس، تذكرت الصبح أن اليوم خميس، فيقول لك البدن: أنت ستشعر بالصداع اليوم ووراءك أشغال، الآن دخلت في صراع، من ينتصر في الصراع؟ القوي منهما.

لذلك إذا صلح القلب-الملك-ماذا يحصل للبدن؟ يصلح ويطيع.

وإذا كان القلب مريضًا وضعيفًا ماذا يحصل للبدن؟ يفسد.

وفي نهاية الرحلة، سيصبح البدن هو الذي يركب القلب؛ فتصبح الشهوات والبدن هي الملك.

(1) "صحيح البخاري" (كِتَاب الْإِيمَانِ/بَاب فَضْلِ مَنْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ/52)، ومسلم (كِتَاب الْمُسَاقَاةِ/ بَاب أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ/1599).

إذًا أنت عبارة عن قلب وبدنك مجرد تابع لقلبك. فهذا النص عظيم دائمًا نذكِّر أنفسنا به حتى نفهم، تريد أن تستعد للطاعات، تريد أن تستقبل رمضان، تريد أن تقوم بالحج، تريد أن تفعل أي طاعة، اعلم أن القضية دائرة في قلبك، إذا صلح، صلح كل شيء وراءه، وإذا كان فاسدًا، مهما خضت من التجارِب والأعمال الصالحة ولك قلب فاسد فلن تستفيد من مواطن الطاعات.

دليل آخر يبين مكانة القلب:

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))[1]

أنت الآن صائم قائم، صورتك-صورة بدنك—جائع، عطشان، قائم، تقرأ القرآن، لكن قد يكون القلب في وادٍ آخر تمامًا، هذا الوادي الآخر الذي يهيم فيه القلب الله ينظر للقلب وهو هائم في الوادي، بمعنى أن صورتك التي تغرّ الناس أنك صائم أو قائم أو متصدِّق ليست هي التي ينظر إليها الله أو يعتبرها، بل ينظر إلى قلبك وما هو موجود فيه. فخداعك لله أو أن تُظهر شيئًا ليس موجودًا في القلب، هذا كله سينقلب عليك وليس لك!

معنى ذلك أن صلاح بدنك وقت الطاعات وفساده إنما هو مؤشر لصلاح القلب أو فساده.

فلا تطلب من بدنك صلاح وصيام وقيام وطاعات متتابعة والقلب مريض. لا يصلح تحميل البدن ما لا يستطيع إذا كان القلب فاسدًا. ولا تطلب من البدن أن يسير على الصراط المستقيم وهو في فساد من الداخل.

ثم الأمر الثاني: حتى إن استطعت أن تمُثل الطاعات وتعايشها فترة من الزمن، فاعلم أن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمعنى ذلك أن الصلاح إنما هو رهين صلاح القلب، والفساد مثله.

هناك نصوص كثيرة وخلال الكلام تأتينا نصوص أخرى عن القلب.

هذا القلب الذي نريد أن ندخل به رمضان ومواسم الطاعة عمومًا، ماذا يصيبه من أمراض فيصبح غير طاهرًا وغير مستعدًا أن يكون فيه الإخلاص؟

وحتى نتصور، ها هم حولنا الناس يحصل لهم الموت ويفقدون الأحبة إما في فاجعة أو في مرض أو في غيره، مع ذلك الناس وقت الموت يجدون أن القلب لا زال قاسيًا ولا يلين ولا ينشط، مقياس القسوة أن مع رؤيته لنهاية كل أحد لكنه لا ينشط إلى أي شيء لا إلى الطاعة ولا توبة ولا استغفار، مع أن المفترض أن مثل هذه الأحداث بالنسبة لنا تكون محركة توصل الإنسان إلى الاستقامة، وتوصله إلى ما يحب الله ويرضاه.

(1) "صحيح مسلم"(كِتَاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَاب/باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله/6543)

أهم مرض يصيب القلوب ويوصلها إلى القسوة:

ضعف الإيمان

وهذا يسبب أن تمر على الإنسان الأحداث بعد الأحداث، والقلب إما مريض أو قاسي وإما غافل ولاهٍ؛ لذا لو أردنا أن نبدأ بطهارة الوجدان سنبدأ أولًا بالكلام حول الإيمان.

إذا أردت أن يطهر وجدانك، فلا بد أن تعرف أن فيه ملوثات كثيرة داخله، أنت مؤمن بالمحسوسات، متعلق بها، متعلق بالشيء الذي أمامك وتحت نظرك سواء ما تتعلق به كان حظ نفسك عند الناس تريد لنفسك المكانة، أو تتعلق بالدنيا من مال ومظهر، أي شيء أنت متعلق به من جهة الدنيا وتحس به سيقوى شعورك تجاه المحسوسات ويضعف شعورك تجاه الغيبيات، فيصبح كل التفكير في هذا المحسوس، وهذا أعظم مرض يصيب القلب أن تغيب عنه الحقائق التي وراء المحسوسات. وهذا أكبر اختبار يعيشه الناس.

يقول الله-عزَّ وجلَّ-في مطلع سورة المؤمنون: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}[1] هذا أهم شرط أن يكون مؤمنًا، فإذا وُجد الإيمان بدأت طهارة القلب، وإذا ضعف الإيمان جاءت الأمراض وأشكالها.

هذا الإيمان هو سبب الصلاح والطهارة

نريد أن نناقش الإيمان الذي سيخرجنا من الأمراض والقسوة، قال تعالى في مطلع سورة البقرة: {الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}[2] المتقين: هم طاهري القلب، {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}[3] أول شرط: يؤمنون بالغيب قبل أي عمل، قبل إقامة الصلاة والصدقة.

هذه الأعمال لا تصلح إلا بعد قوة إيمان بالشيء الغيبيّ، وهذا الشيء الغيبيّ إذا لم يحصل له تحريك في القلب، ستصبح الأعمال مجرد عادات؛ لأننا لا نفكر في لقاء الملك العظيم. لو أن أحد فينا ينتظر لقاء محبوبه أو ينتظر ملكًا عظيمًا سيذهب لزيارته، سينشغل طوال الأيام السابقة لذلك استعدادًا للقائه، لماذا؟ لأن اللقاء محسوس، فالمحسوس يثير دواخلنا ويجعلنا نتحرك، أما الغيب محجوز عنا بكونه غيب لا نشعر به، لا نذوقه، مما سبَّب لنا أن نغفل عنه، لذلك الله-عزَّ وجلَّ-يقول: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}[4]، إلى متى ألهانا؟ {حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}[5]حتى دخلتموها، حتى أصبحتم من أهلها، التكاثر في الدنيا والشيء الذي بعده لا ينتهي؛ والسبب ضعف الإيمان بالغيب مع قوة الطمع

(1) [سورة المؤمنون : 1]
(2) [سورة البقرة:1-2]
(3) [سورة البقرة: 3]
(4) [سورة التكاثر: 1]
(5) [سورة التكاثر: 2]

بالمحسوس، الناس في أول رمضان يفكرون في العيد ماذا يفعلون! وفي شعبان يفكرون في رمضان ماذا يأكلون! فالمحسوس أكل القلوب.

من المعلوم عند أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي. انظروا أول يوم في رمضان ماذا يتوقع بالنسبة لثاني يوم؟ ثاني يوم سيكون أقوى في الطاعة أم أول يوم؟ المفترض ثاني يوم؛ لأنك أطعت أول يوم فالمفترض أن إيمانك زاد. لكن قارنوا بين أول رمضان وبين عاشر رمضان؟ ينحدر! معنى ذلك أن ثاني يوم لم يكن أفضل من أول يوم. بعد ذلك نأتي لليوم الخامس عشر نحتاج تنشيط جديد! نأتي للعشر الأخير نقول لبعضنا البعض: هذه ليست ليلة وترية، أي اذهب وافعل ما تريد! وهذا كله دليل على أننا لا نسير على الطريق الصحيح.

وانظري أكبر دليل نتفق عليه، ليلة رمضان وأول شوال شاهد على ضعف الإيمان وذلك في ترك الصلاة وإهمالها، وترك السنن، وترك قيام الليل الذي كنت تقومه كل ليلة! فهذا معناه أن هذه الأعمال لم تقع على القلب ولم يزد الإيمان المنتظر، فمعنى ذلك لا بد من مراجعة، وهذه المراجعة سببها أن الناس يسيرون مع بعضهم في الدنيا، وكذلك في الآخرة يسيرون مع بعضهم إلى أن يضرب بينهم بسور له باب: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[1]. ما معنى {أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ}؟ أي نصلي صلاتكم ونجلس مجالسكم. قالوا: بلى، لكن أنتم بنفسكم فتنتم أنفسكم، وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور، غرتنا الأماني وغرنا بالله الشيطان، هذه الحالة التي نحن فيها.

أول الأمر: أن نفهم أن أول الوصول الإيمان بالغيب، الإيمان بالله ولقائه، ومعرفته-سبحانه وتعالى-بأسمائه وصفاته وأفعاله، إلى أن يصل الإنسان إلى حال يصبح الغيب عنده شيء مهم مُلِحّ يفكّر فيه، يفكر في لقاء الله، من هو الله الذي ستلقاه، أن يحمل هم لقاء الله ، يصبح عندك تفكير، كما تعلمون كلكم هناك شمس تقترب، وهناك أعمال تستطيع أن تفعلها لتكون تحت ظل هذه الشمس، ((كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ أَوْ قَالَ يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ))[2]، إذا فعلت الفعل وأنت تفكر فيما غاب على الناس لأنه غيب، معنى ذلك أن وجدانك هو الذي تحرك بالعمل قبل بدنك. لا تجعل القصة كلها في عمل البدن، وفي نهاية الأمر سيكون الواقع أننا نخرج من رمضان ولم يزد القلب إيمانًا.

ما هو الإيمان وكيف نزيده؟

(1) [سورة الحديد: 13-14]

(2) "مسند أحمد" -مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ-(كل امرئ في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس أو قال يحكم بين الناس/16882)، صحّحه الألباني على شرط مسلم.

نعرف أن هذه الحقائق موجودة أصلًا لكن {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}[1] نحتاج لتحريك هذا المفهوم وكيف أن الإيمان أصبح ضعيفًا ونحتاج إلى تقويته.

الإيمان معناه: التصديق الجازم. عندما تقول لأحد: صدِّقني. معناه: أني أتيت لك بمعلومة، أتيت لك بخبر، وأطلب منك تصديقها. معنى ذلك لو قلت: أنا مؤمن بالله. تعني: أنا مصدق تصديقًا جازمًا بكل الأخبار التي أتتني عن الله -عزَّ وجلَّ-أسماؤه، صفاته، أفعاله، وها نحن نقرأ {الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}[2]، ثم نسأل أنفسنا: هل نحن مصدِّقون يقينًا أنه حي قيوم؟ أين مشاعرك التي يظهر فيها أنك مؤمنًا مصدقًا يقينًا جازمًا أنه قيوم قائم على كل نفس، قائم عليك يجري دمك في بدنك، يأمر الرئة بالتنفس فتتنفس، أين هذا اليقين؟ المفترض أن نفهم جيدًا الأخبار التي وردت وسمعناها عن الله ثم نعايشها معايشة جيدة.

ها نحن نقرأ آية الكرسي ونختمها فنقول: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[3]، ونعرف أنه-سبحانه وتعالى-له علو الذات على العرش استوى، وله علو الصفات، مهما رأيت كريم فهو-سبحانه وتعالى-أكرم الأكرمين، ومهما رأيت قريب فهو-سبحانه وتعالى-أقرب للعبد من حبل الوريد، ومهما رأيت ومهما رأيت من صفات الكمال، نعرف أن الكمال كله لله-عزَّ وجلَّ-. وإذا كنت تعلم يقينًا أن الله-عزَّ وجلَّ-عال بذاته وعال بصفاته وعال بقهره وسلطانه، فتكون على يقين أن أهل الأرض لو اجتمعوا على أن يضروك أو يكيدوك، فلن يضرُّوك إلَّا بشيء قد كتبه الله عليك كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-لابن عباس: ((وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ))[4] هذا الكلام الذي نقوله لو وُجِد يقين وإيمان! نحن في الهدوء نقول أحسن ما يكون، لكن عندما تأتي المواقف يخرج الذي في الداخل من يقين.

فهذا الكلام الذي نقوله لا بد أن تأتي في مواقف وتُختبر فيه، لا توجد دعوى مع الله، قال تعالى: {الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[5] كل من يقول: أنا مؤمن بالله وبكمال الله وأنه حي قيوم، لا بد أن تمر عليه أحداث ويدخل في الاختبار، ويكون هذا اختبار إيمانه بأن الله قيوم، وهذا اختبار إيمانه أنه علي، وهذا اختبار إيمانه أنه قريب أنه مجيب أنه جبار، كل يوم يمر باختبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله ورسوب وراء رسوب، فيضعف الإيمان من هذا المنطلق.

---

(1) [سورة الذاريات: 55]

(2) [سورة البقرة: 255]

(3) [سورة البقرة: 255]

(4) "سنن الترمذي"(كِتَاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ / لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه/2516)، وصححه الألباني

(5) [سورة العنكبوت: 1-2]

نحن نقول كل يوم بعد كل صلاة: (اللهم أنت السلام ومنك السلام)، هذه التحية العظيمة يقولها أهل الجنة-نسأل الله من فضله لنا ولكم والمسلمين ووالدينا ووالديهم آمين-هذه التحية يقولها المؤمنون عندما يلقون ربهم في وادي الأفيح، عندما يلقونه ويذكرون نعمه-سبحانه-عليهم، فيسلِّم عليهم فيقول الله-عزَّ وجلَّ-: السلام عليكم. فيقول المؤمنين: اللهم أنت السلام ومنك السلام. من يقول هذه الكلمة؟ الذي عاش يفهم أن الله سلام! وكيف تقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله بعد أن تقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام؟ تقول: لا يوجد ظن سوء يلقيه الشيطان في نفسي فأقبله، فأنا أعلم يقينًا أنك سالم من كل نقص، فالذي يلقيه الشيطان من نقص ومخاوف ويخوفني أعلم يقينًا أنك سالم منه.

انظر كيف يأتينا الشيطان من كل مكان، سيحصل لأولادك حادث، سيضيق عليك، سيموتون! أمام كل هذه المخاوف إيمانك أن الله سلام وأنه حفيظ ومجيب وقريب إلى آخر ما يجب أن نعرف لا ما ندَّعي أننا نعرف!

فرق كبير بين ما يجب أن نعرف وما ندَّعي أننا نعرف.

لو عدنا إلى آية الكرسي: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} عرفت أن العلي له علو الذات والقدر والقهر، ومهما اجتمعوا لن يضروك، ومهما تعلقت بهم حتى ينفعوك لن ينفعوك، إذًا معنى ذلك عندما تقف في صلاتك وقبلة بدنك الكعبة فليكن طوال وقتك قبلة قلبك العلي العظيم، الذي يجب أن يكون في قلبك {الْعَلِيُّ} الذي له علو الذات، له علو القهر، له علو المكانة والقدر والصفات، الذي له العلو في كل شيء. فعندما يأتي أي قوي تعلم أن الله أقوى منه، عندما يأتي أي أحد يريد أن يمكر بك تعرف أن الله يمكر بالماكرين ويكيد للكائدين، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}[1]، كم نردد هذه السورة وكم تفكَّرنا في فعل الله؟ فكِّروا معي، قصة الفيل معروفة، وهي أن الله-عزَّ وجلَّ-مكر وكاد بأصحاب الفيل الذين أرادوا هدم الكعبة مكرًا يبيّن لك كيف أفعال الله ومن ثَمَّ تثق بالله. أي أنهم كانوا في اليمن وكادوا هذا الكيد وجمعوا الجيش لكن الله لم يهلكهم في اليمن، ووصلوا إلى الطائف ولم يهلكهم في الطائف، متى أهلكهم؟ عندما أصبحوا أمام هدفهم-بتعبيرنا نحن: في عنق الزجاجة-وعندما تخلى كل الناس وقريش هربت وطلعت إلى الجبال، ثم هذا الفيل ماذا سلط الله عليه؟ الحجارة.

بعد أن تقرأ هذه السورة وأنت مؤمن يقينًا بصفاته، يذهب القلق الذي في قلبك، الذي يجعلك لا تستطيع أن تفكر وتعيش وتقف على قدميك يذهب {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}[2] هؤلاء الذين تملَّكوا وبسبب ملكهم طغوا، وبعد ذلك هل يظنون أن الله

(1) [سورة الفيل: 1-2]
(2) [سورة الفجر: 6-10]

سيتركهم؟ كلهم ماذا فعلوا؟ عاد وثمود وفرعون اجتمعوا في ماذا؟ {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}[1] ثم ماذا؟ {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ}[2] سوط من عذابه، أي: شيء بسيط من عذابه.

معنى ذلك، مَن الله في قلبك؟ هذا هو الإيمان!

أنت تعيش الحياة كلها حتى تصل للقبر وتُسأل ثلاثة أسئلة، تنجح فيها وتعيش في النعيم: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ هذا هو الإيمان.

عندما يكون هذا كله مطفي في القلب ليس له بريق، ليس حيًا رغم أننا نختم القرآن، وفي القرآن كلام عظيم يحكي لك من هو الله، وكيف فعل بهؤلاء وكيف فعل بهؤلاء.

عندما تستفتحون أوائل سورة القصص وتجدون الله-عزَّ وجلَّ-يقول:{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }[3] هذه خمس صفات لفرعون، ثم اسمع ماذا يقول الله -سبحانه وتعالى- عن نفسه: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}[4] اقرأ القصة للآخر، تجد الخمس إرادات التي أرادها الله كانت رغم ملك فرعون. إذًا الله يخبرك مَن هو، وكلما قرأت القرآن ستعرف مَن هو الله.

لكن اقرأ القرآن قراءة من يريد معرفة الله

عليك أن تقرأ القرآن ليزاح هذا الغياب الحاصل لنا، وهو غيب والاختبار في الغيب.

هل عندما نلاقي ربنا-ويقينًا سنلقاه ونكلمه ما بيننا وبينه ترجمان-هل نستطيع أن نقول: يا رب أنا لي عذر أني لم أعرفك؟!

دعونا نعدّ ماذا أعطانا الله حتى نزيح هذه الغُمة التي نعيشها من ضعف الإيمان:

1- الله-عزَّ وجلَّ-خلق الخلق كلهم على فطرة سوية، هذه الفطرة السوية فيها سؤال دائمًا مُلِح: مَن فعل ولماذا فعل؟ الطفل الصغير لو ضُرب يسأل: من ضربني ولماذا؟ هذا الذي عند الطفل الصغير في فطرته التي فُطر عليها،

(1) [سورة الفجر: 11-12]
(2) [سورة الفجر: 13]
(3) [سورة القصص: 4]
(4) [سورة القصص: 5-6]

الإنسان موجود طوال الحياة وهذا السؤال يصاحبه، ها هي الأشياء حولك طوال اليوم تشهد بأفعاله وعظمته- سبحانه وتعالى-:

- الشمس كل يوم تولد وتصبح شابة وسط النهار ثم تموت وتزول آخر النهار، ولا يوجد مَن يسأل: من فعل ولماذا وما الدلالة؟!
- والقمر الذي يولد في أول الشهر ثم يصبح شابًا يبتدر ثم يموت آخر كل شهر، ولا تقول: من فعل ولماذا فعل وما الدلالة؟!

هذه الأشياء الموجودة في داخلنا عما تضعف بسبب: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} تصبح العلامات والإشارات موجودة وأنا في صَد كأني لا أرى ولا أسمع!

نضرب مثال نعيشه دائمًا: عندما نتكلم عن الحليب آخر شيء نعرفه ونمدحه في الحليب الشركات، ونقرأ في سورة النحل عن كيفية خروج هذا اللبن {نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ}[1] خالص وسائغ للشاربين خرج من بين الوسخ والدم، ومع كذا خرج فيه صفتين: لم يصله الوسخ ولم ينقع فيه الدم، أين (سبحانك) وقتما نشرب الحليب؟ عَزَلتنا العوازل.

مرة أخرى {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} من جهة، ومن جهة أخرى غرتنا الأماني {وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}، لذلك لا نستطيع أن نقول لربنا: نحن خلقنا على خلقة لا توصل إليك! لأننا خلقنا على خلقة توصلنا إليه. لذلك نسمع دائمًا في القرآن أن النبي مُذكِّر وأن القرآن ذكرى، معنى ذلك:

- أننا كلنا مستقر فينا الفطرة السوية التي تدلنا على ربنا.
- ثم حولنا كل الإشارات والدلالات التي تدلنا على ربنا.
- ثم جاءت المنَّة العظيمة بأن أرسل الرسول وأنزل الكتاب.

إذًا ثلاث أمور موجودة في داخلي، لو كان الشخص في آخر الأرض ستنطق فطرته وتقول: مَن فعل؟ ويهتدي إلى معرفة الله، لو كان أين ما كان الشخص؛ لأنه خلق على الفطرة.

مَلَكَة الإنسان عندما يشعر بالجوع والعطش عندما يكون طفل صغير. مثل ذلك (الفطرة) مَلَكَة داخل الإنسان دائمًا تسأل: مَن فعل ولماذا فعل؟ ما تسكُت هذه الملَكَة إلا إذا أسكتها هو بمشاغل تشغل هذه الفطرة عما يجب.

إذًا هذه أول عطية أعطانا الله إياها أنه خلق الناس كلهم على فطرة سوية، تساعدهم على أن يؤمنوا، معنى ذلك أن الإيمان ليس ضد ما في داخلك، نحن فطرنا أيضًا على مستحسن (حب العدل) ومستقبح في نفوسنا كلنا وهو (الظلم).

(1) [سورة النحل: 66]

لو رأيت شخص كبير يضرب صغير ما هي مشاعرك؟ أن هذا غير مقبول، لا يعتدي الكبير على الصغير، كلنا مجمعين على كراهية الظلم وكلنا مجمعين على حب العدل.

(أ) تعطيني هدية و (ب) لا تعطيني، فذهبت لأشكر (ب)، هل يقبل الطفل الصغير؟ لا، لأنه يرى ذلك ليس عدلًا! طيب لو شكرت (أ) و (ب)؟ أيضًا لا يقبل، يقول لكِ: هذا لم يفعل لك شيئا، (أ) فقط هو الذي تشكرينه! فانظري إلى أي درجة العدل مهم وموجود.

انظر إلى طاعة الله وعبادته وشكره والثناء عليه، هذا هو العدل، أعطاك تشكره، والذي لم يعطك ما تجعل له في قلبك مكان، لا يوجد أحد أعطاك على الحقيقة إلا الله، قال تعالى: {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ}[1] ماذا ستجيبون؟ الله هو الذي أنزلها، انظري للمكونات الثلاثة: النار والماء والزرع، ونحن عندما نطبخ ونأكل أي شيء، يكون من هذه الأشياء، نردّ كل شيء لأصله تجده عطية من الله، فهو وحده الذي يُشكر.

لذلك لقمان قال لابنه: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[2] ثم سمّى الشرك ظلم عظيم؛ لأن النفس لا ترضى بالظلم، فهذه الفطرة التي فطرنا عليها تدفع الناس للإيمان.

إذًا هذا رقم واحد الذي خلق الخلق كلهم من أجل أن يزول هذا الحجاب عنهم ويزول هذا الحاجز عن قلوبهم، فرقم واحد: الفطرة السوية.

2- ثم أعطانا الله حولنا آيات ننظر إليها لنعرف من ربنا.

مثال: تمر على رصيف قد بني من الأسمنت ووضع عليه بلاط، ثم تأتي وسط هذا الرصيف تجد نبتة، ماذا تشير لكم؟ تشير إلى أنه على كل شيء قدير، وإلى لطف الله، وإلى حكمة الله، أيضًا هناك مشاعر قوية عندما تكون في ضيق وتظن أنه لا يوجد أمل ثم تخرج من وسط هذا الضيق كله، معناه أن الله يفرج الكرب ويخرجك من الضيق كما أخرج هذه من أضيق مكان.

عندما تعرِف الله تعرِف كيف تفكّر، عندما تعرف الله تصبح عينك ترى الأشياء بصورة أخرى، عندما تعرف الله تعرف تربيته.

مثلًا: تظنين في جارتك ظنًا ولم تقولي لها، فتجدين جارتك أتت تدافع عن نفسها دون أن تتكلمي، مَن المطّلع على قلبك جعلها ترد على نفسها؟!

(1) [سورة الواقعة: 63-69]
(2) [سورة لقمان: 13]

مثلًا هذه جارة جديدة عندك، تحدثين نفسك وتقولين: أولادها كبار ما شاء الله ولم تنجب بعدهم أظنها تريد أن تحافظ على رشاقتها، تأتيك هي تطرق الجرس وتقول لك: ادعي لي، أنا عندي موعد في المستشفى أتعالج لي ثمان سنوات ما أنجبت! هذا الجواب لأجل ماذا؟ هل من أجل أن تطّلعي وتعرفي؟ لا.

بل ليقول لك الله: أنا مطَّلع على ما في قلبك وأعلم بماذا تفكرين. الله مطَّلع وأنت تعلمين أنه مطَّلع وعندما تنسين وتغفلين هو يطلعك ويذكرك.

المقصد أن كل الذي نجده في أنفسنا من ضعف تجاه التعلُّق بالدنيا وضعف تعلُّقنا بالله؛ سببه الرئيس أننا ما استفدنا من العطايا التي أعطانا الله إياها لنصل له، ولا يمكن أن نعذر في عدم الأخذ بها بسبب وجودها.

أولًا: كلنا نملك فطرة سوية.

ثانيًا: ما حولنا من الآيات والدلالات والتربية لله وإشارات المفترض أن أقرأها كما ينبغي.

ثالثًا والمهم جدًا: أن الله أرسل الرسل وأرسل معهم الكتب، فكان الكتاب منهجًا نستطيع أن نفسِّر به كل الأحوال التي حولنا.

معنى ذلك اجتماع هذه الثلاثة مع بعض تشكل لنا الطريق أن نؤمن، وعدم الانتفاع من هذه الثلاثة يسبب لنا ضعف الإيمان والحل: العلم عن الله.

أول الحل: حتى أزيد إيماني ومن ثم أطهر وجداني، أتعلم عن الله.

جميعًا يحفظ قوله تعالى: {الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ}[1] لكن عندما نأتي لنعبر عن هذه الصفات بحقائق واضحة نجدها ضعيفة، ما عندنا سطر نكتبه ولا أمثلة نقولها ولم أستمتع في حياتي بأن الله قريب ومجيب وحليم ورحيم وجبار، حتى أن بعض الناس عندما يسمع (جبار) لا يفهم إلا جبر الملكوت-بمعنى قصم الجبارين- وينسى أنه يجبر قلوب المنكسرين، وهكذا كثير.

وعندما يعاملنا الله بالجبر فيجبر لنا قلوبنا في مصيبة، نقول: أنا ما عندي إحساس، لذلك لا أبكي ولا أتذكر! وهو لا يعلم أن الله عامله بالجبر، حتى عطيَّة الله لا تقبل بسبب أننا لا نعرف الله!

إذًا اتفقنا أن أول طهارة للوجدان تكون بإدخال الإيمان؛ لأنه إما الإيمان يكون في القلب أو الدنيا وما يتبعها، والنبي -صلى الله عليه وسلم-قال: ((حُبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ))[2] كل خطيئة رأسها أنك تحب الدنيا. الطمع، التنافس، الحقد، أمراض القلب التي لا يحس أحد بها، أمراض القلب ليس لها سبب إلا ضعف الإيمان. إما أن يكون القلب متصف بالطهارة بسبب وجود الإيمان، وإما يتصف بضد الطهارة الفساد أو الخبث والمرض.

(1) [سورة الحشر: 23]

(2) ضعَّفه الألباني.

- إذا وجد الإيمان في القلب طهَّره.
- وإن خرج من القلب فسد القلب.

سنضرب مثال حتى نتصور:

نحن نؤمن أن الله قسم الأرزاق للخلق قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف عامًا. ولمَّا قسمها اختبر العباد بها، فكل عبد قسم له واختبره بالقسمة، نحن مختبرين بقسمتنا هل إذا أردنا أن نذهب لِما هو رزقنا وما هو محبوس في الغيب: هل نذهب من طريق يرضاه الله أو طريق لا يرضاه الله؟ على حسب الإيمان. نحن أقدارنا قد كتبت وأرزاقنا قد قسمت، ونحن في الدنيا نسعى لهذه الأرزاق والله ينظر لسعينا من أي طريق نذهب، وهل نرضى أو لا نرضى؟ وهل نقبل أو لا نقبل؟ واحد يعرف ربنا ويعرف أن الأرزاق قد قُسمت، إذا سعى في الطريق الذي يرضاه الله سيأتيه ما قسم له، وإذا سعى في الطريق الذي لا يرضاه الله أيضًا سيأتيه ما قسم نفسه لن يتغير! وبهذا يكون لو سعى في طريق الحق كتب له الأجر، ولو سعى في طريق الباطل كتب عليه الوزر.

الآن أنت ما كتب لك الرزق، ما كتب لك الولد، ما كتب لك الترقية ...إلخ والجيران كتب لهم، فماذا يحصل في القلب؟ هنا إما طهارة بسبب الإيمان وإما مرض. تظهر الأمراض، يظهر الحسد أو الحقد أو على أقل تقدير التنزيل منهم، أي أنه قسم له وأنت لم يقسم لك فتقول: (الله يخلي الواسطة)! لا يوجد عنده إيمان أن الله هو الذي قسَّم، فقط أقول ذلك حتى أعبر عن الغليان الذي في الداخل، ولا يرى أحد هذا الغليان، أنا أُمثِّل لكن الله مطلع!

ماذا أفعل لنفسي؟

- علينا أن نؤدب النفس ونراجعها.
- علينا أن نذكر النفس بالنعم ونمقتها قربة لله.
- لا نكره أنفسنا لأنها لم ترد على فلان وفلان، بل نمقت أنفسنا لأنها لم تتأدب مع الله.

كيف تكون الطهارة من أمراض القلوب؟ هناك قائمة من أمراض القلوب، هناك حقد وحسد وغيرة التي هي في حقيقتها حسد، كلما زدت إيمانًا-إيمان بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله-كلما عرفت نفسك فتهذبها، تهذب القلب الذي يطّلع عليه الله-عزَّ وجلَّ-.

نضرب مثال آخر: تبتلى بأي بلاء وتجرح من فلان وعلان ويبقى قلبك متألم لفقد حبيب أو أي شيء، ثم يبقى قلبك يسعى عند الناس، يريد من الناس أن يجبروه، يتكلم مع هذا ساعة ويحكي له قصته، ثم يقول له: جبرك على الله، وإذا كلمته مرة أخرى يقول لك: نحن سمعنا كلامك أمس، وهذا يؤذيك وهذا يؤذيك، فيحصل في القلب تجاه الناس أن الناس ما يشعرون بأحد، الناس مالهم إلا نفسهم، ويبدأ في حقد على المجتمع والناس وأنهم ما يشاركوني همومي!

ما الذي يطهر قلبك من هذه المشاعر؟ هو أن تعرف عن الله ما عرفه يعقوب-عليه السلام-: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[1]، ولأنه يعلم من الله ما لم يعلمه غيره كان كل توجهه إلى الله. فقوة الإيمان تعالج الأمراض، ما تجعلك إنسانًا حاقدًا على المجتمع وحاقدًا على من حولك، تدخل رمضان وأنت قلبك مليء غليان على من حولك، لن ينفعك رمضان ولا الصيام ولا أي شيء!

كل هذه الأحداث التي لا بد أن تجري حولنا، تعالج هذه الأمراض التي تخرج من قلوبنا بالإيمان، ضعف الإيمان يسبب شدة غليان القلب على الناس، سوء الظن، كل هذه الأمراض تخرج بسبب ضعف الإيمان.

أعمال الإيمان كأنك تغرف من مكان وتملأ قلبك، إذا كان قلبك على درجة من الغليان من الأحداث التي تدور حولك، فأي شيء ستجده من برد الإيمان سيذهب، ليس له قيمة ولم يذق لا طعم الإيمان ولا برد الإيمان ولا أي شيء.

اتفقنا أن الإيمان بالله-عزَّ وجلَّ-سبب لأمرين:

1. الإيمان بالله-عزَّ وجلَّ-سبب لصلاح الأعمال، كلما زدت إيمانًا كلما صلحت أعمالك وتقدمت.
2. وزيادة الإيمان سبب لعلاج أمراض القلب؛ لأنك عندما تطمع في شيء في الدنيا وتجري وراءه ستسعى وأنت مطمئن أن لا أحد سيأخذ رزقك الذي كتبه الله لك.

مثلا سيارة الأجرة تمشي في الشارع وتكون أكثر من سيارة، ماذا يحدث عندما يكون الإيمان ضعيف؟ يسقطون على بعض، حتى يصلوا (للزبون) ويمكن أن يصلوا إليه ولا يتفقون معه، والذي مشى بهدوء وصل إلى رزقه، لا نقول: اترك السعي، نقول: اسع وأنت مطمئن أنه لا يوجد شيء كُتب لك ثم يأخذه أحد منك، كن مطمئنًا بالله!

اثنان يقدِّمان على ترقية واحد وهو في الترقية يكتب ما يؤذي صاحبه، والثاني يكتب كلامًا على نفسه وأنه فعل وفعل، فيقبلون هذا والذي عنده أذية يسقطونه من حسابهم؛ السبب أن المرض الذي في القلب يظهره الله-عزَّ وجلَّ-على العبد فيعاقبه به، فيحرم أرزاقًا، ويحرم بركة، ويحرم قبولًا الناس له، وكله بسبب ما في القلب.

فالله مطّلع ويظهر ذلك على جوارح الإنسان.

المقصد من مجمل الكلام أن الإيمان يسبب لنا صلاح القلب وصلاح الأعمال. ونحن في الحقيقة أزمتنا التي نعيشها هي قلوبنا المريضة التي نريد أن نصلحها بوجبة خفيفة وهذا لا يكفي بل علينا بالتكثيف!

ما حقيقة الإيمان بالله-عزَّ وجلَّ-وكيف هو الوصول إليه؟

(1) [سورة يوسف: 86]

الإيمان هو التصديق الجازم بشيء قد غاب عنك وأخبرك الله عنه، إذًا الإيمان بالله هو التصديق الجازم بكل ما أخبر الله-عزَّ وجلَّ-به عن نفسه، وهو غائب لكنا نجد آثار ما أخبرنا الله به عن صفاته.

فحتى تصل إلى الإيمان عليك بالخطوات التالية:

1. أن تتعلم عن صفات الله-عزَّ وجلَّ-وتفهمها جيدًا من كلامه-عزَّ وجلَّ-وكلام رسوله-صلى الله عليه وسلم-. أي تسمع عنه أنه-سبحانه وتعالى-ودود يحب عباده، أنه غفور، أنه مجيب، أنه قريب، أنه مطلع على ما في القلب.
2. أن تبذل جهدك أن تلحظ آثار صفات الله-عزَّ وجلَّ-في كل شيء حولك، فمثلًا: أنت تعرف أن من صفات الله-عزَّ وجلَّ-أنه يُملي للظالم-أي يمهله-ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، فأنت تأتي في مواقف وتجد حولك ظالمين باقين فيأتي أحد يقول: أنا شككت أني سائر على الطريق المستقيم! أنا أسير على الطريق المستقيم وهؤلاء ظلمة وهم فيهم وفيهم. أين معرفتك بالله؟! هذه المعرفة عليك أن تتلمسها في الواقع.

نحن لا ندرك الله-سبحانه وتعالى-بالحواس لكن أتتنا أخبار عنه، ودوري تجاه هذه الأخبار أن أرى آثار صفاته، أخبرك الله-عزَّ وجلَّ-أنه عزيز وستري آثار عزته، وأخبرك أنه قريب وستري آثار قربه، ورزاق وكريم ورحيم، كل الصفات التي وصف الله بها لها آثار.

إذًا ماذا سأفعل في الحياة؟ علينا أولًا أن نتعلم الصفات ونتعرف على الله-عزَّ وجلَّ-من كلامه، ونعرف الله-عزَّ وجلَّ-من كل قصة حكاها الله لنا في القرآن، ومن كل حكم حكم الله به، من شرعه وقدره الذي نعايشه. إذًا ماذا تفعلين؟ تتعلمي ثم تتلمسي.

نضرب مثالًا حتى تتصوروا:

- كلنا نعلم أن الله حكيم وهناك شواهد على حكمته في حياتنا الخاصة، وهناك شواهد على حكمته في كل الحياة، لو نظرتِ إلى الليل والنهار ترين فيهما حكمته-سبحانه وتعالى-، لو نظرت إلى الذكر والأنثى ترين فيهما حكمته، وهكذا.
- إلى أن نأت بمثال تفصيلي ونرى ماء زمزم، ونرى حكمة الله فيه، تلمسي وفكري، الله-عزَّ وجلَّ-جعل آية لأم إسماعيل-عليه السلام-تفجر ماء زمزم، اتركي القصة وفكري فيما بعدها، الله عليم أنه ستأتي أفواج لهذا البيت وسيكون في زمن هناك دول ترعى البيت وفي زمن لا يوجد دول ترعى البيت، أكثر ما يحتاجه الناس عندما يجتمعون الماء، سواء رعاه الناس أو لم يرعوه سيبقى الماء موجودًا، وهذا الماء ليس ماء فقط أيضًا طعام طعم وشفاء سقم، فلا ينضب، ومهما كثروا أو قلوا طال الزمان أو قصر لا زال الماء موجودًا، فسيصبح هذا البيت آهلًا بالناس بسبب وجود الماء فخروج الماء هذا آية، فتنظرين له وترين آثار حكمة الله في هذا.

المقصود أن حولك آثار كثيرة على صفاته، عليَّ أن أتعلم عن الله تعلُّمًا واضحًا، وأشغل قلبي بهذا العلم فإذا حصل الانشغال بالتفكير في الله وأسمائه وصفاته، انفتحت العينين والأذنين لتلمُّس آثار صفاته-سبحانه وتعالى-.

إذا تلمَّست آثار صفاته وفكَّرت فيما حولك، بعد ذلك تأتي حالة التنقية، أي بعد أن تعرف أسمائه وصفاته وتنظر حولك إلى آثارها عد إلى قلبك وابحث عن كل سوء ظن دخل في قلبك عن الله-عزَّ وجلَّ-، وسوء ظن في أقداره، وسوء ظن أنك لست محظوظًا ، وسوء ظن أن هذا أحسن منك وسوء ظن أنك ما توفق، وأخرجه حتى تصل إلى أن ترضى عن الله؛ لأنه عندما يأتي النداء الأخير كما في سورة الفجر وتكون النفس مطمئنة يقال لها: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}[1] فعندما تعبد الله عبادات، المطلوب منك أن يكون عندك قلب راضٍ فحينما تغرف من العبادة على قلب راضٍ يزيد الإيمان.

ارضَ والله أعلم بك. دائمًا نقول: أنا أعرف نفسي وعندما تأتي المواقف تكتشف أنك أجهل الناس بنفسك، لا تعش على "أحسب" فقد وصفهم الله في سورة النور، وصف الله رجل يسير في صحراء {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[2].

خطوات لأرى آثار صفات الله:

1. أتعلم عن الله وأعيش تحت آثار أسمائه وصفاته.
2. أبذل الجهد في ملاحظة آثار صفاته-سبحانه وتعالى-فتحصل في القلب زيادة الشهادة، يصبح لديك شيء أنت تذوقه والناس لا يذوقونه. أن يربيك الله تربية تجعلكِ متيقنة أن كل ضيق وراءه فرج، فيأتيك أحد الجاهلين يقول لك: ما زلت على هذا التفكير؟! أنت في عالم ونحن في عالم. لكني أعرف ما لا يعرفونه، وأتيقن بما لم يتيقنوا به لذلك من يعرف ربه عندما يبلغ أربعين سنة، يتبصر ويقول: {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ}[3]، حصل له الرضا، وخرج من الشعور أن العمل الصالح هو الذي يقوم به وعرف أن العمل الصالح توفيق من الله-عزَّ وجلَّ-، وتأتي نتيجة مهمة بعد التجارب: {وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي}[4] لأني تيقنت أنك أنت الذي تربي العباد وتصلح العباد وتربيهم وتبصرهم بأعين قلوبهم ما لا يراه غيرهم. أهل الإيمان لا يرون ما ترون ولا يشعرون بما تشعرون به عندما يقوى الإيمان ويزيد اليقين.

(1) [سورة الفجر: 28]
(2) [سورة النور: 39]
(3) [سورة الأحقاف: 15]
(4) [سورة الأحقاف: 15]

قصة حقيقية: طفلة في الصف السادس الابتدائي مصابة بمرض في عينها، ذهبت للطبيب قال لها الطبيب: ليس لها علاج، فالتفتت لها أمها وقالت: أما عند أهل الدنيا فليس عندهم علاج أما عند الشافي-سبحانه وتعالى- فذاك العلاج، ورفع الله عنها المرض، لكن هذا من باب اليقين!

عندما تعرف أن الله قيوم وأن كل مرض يمرض به الناس أصل علته عدم جريان الدم إلى هذا العضو، وأنت تعرف أن الله قيوم وهو من يجري الدم في العروق، تضع يدك على مكان الألم وتسمي الله وتقرأ عليه مؤمنًا أن الله هو من يجري الدم، فماذا تعتقد في الله؟ الله هو الذي يجري الدم، فحين تترك كل الناس يرفع البلاء بإذن الله.

نعرف قصة الثلاثة الذين خلفوا، نقرأ قصتهم من الآيات، قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ}[1] هذا هو الشاهد كلنا تضيق علينا أنفسنا وكلنا تضيق علينا الأرض بما رحبت لكن الثالث هو الفرق بيننا:{وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ}[2] هذه اللحظة جاء الفرج، فما يأتي تضييق حتى يضيق عليك وهو ملك الملوك الواسع-سبحانه وتعالى-، لكن يضيق عليك لتعلم أن لا ملجأ إلا إليه.

ليس كلنا يُسقط كل الناس ويظن ألا ملجأ إلا إليه، المؤمن وحده هو من يصل إلى هذا، يكون التوحيد عندما تُسقط كل الناس وتعرف ألا ملجأ من الله إلا إليه.

الأعمال ينتظر منها أن تزيدنا إيمانًا، يدخل رمضان ويكون معك إيمانًا فيزيد، علينا أن نؤمن بالله ويلحقه أن نؤمن باليوم الآخر، أي: لقاء الله. حتى نؤمن بالله:

1. علينا أن ندرس ونقرأ ونفهم أسماء الله وأفعاله وصفاته من كتابه. من الفاتحة من {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[3] إلى {مَلِكِ النَّاسِ}[4] والله يحدثك عن نفسه وعن أوصافه وعن أفعاله حتى تقوم عليك الحجة.
2. بعد أن عرفنا الله علينا أن نتبصر بقلوبنا آثار كمال صفات الله-عزَّ وجلَّ-.
3. ثم علينا أن ننكب على قلوبنا، سنجد في قلوبنا من الأمراض التي سببها أننا لم ندخل معرفته سبحانه فيه. قُسم لك والله هو الرزاق وقسم لغيرك والله هو الرزاق ترضى عنه، تطيب لك الحياة، إلى آخر المفاهيم التي لو خرّجت الأمراض من قلبك ستطيب لك الحياة وتصل إلى ما وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-:((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ

(1) [سورة التوبة: 118]
(2) [سورة التوبة: 118]
(3) [سورة الفاتحة: 2]
(4) [سورة الناس: 2]

خَيْرًا لَهُ))[1] المؤمن يعرف أن السراء أتت من الله ويستعملها ليتقرب من الله فيشكر، ((وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) ويعرف أن الضراء من الله طرح للذنوب فيصبر، هذا كله بسبب ما معه من الإيمان. فانكب على قلبك لتخرج الأمراض. كل واحد منا عليه أن يفتح عيونه أكثر عن الأمراض التي في القلب. ليس له دخل بغيره، ما هي الأمراض التي في القلب؟ أخرجها، اللئيم لا يلتفت إلى الأمراض، والكريم يبذل جهده أن يجاهد أمراض القلب.

أمراض كثيرة في القلب من أخطرها سوء الظن بالله-عزَّ وجلَّ-خاصة مما يطرح العبد في النار. ماذا قال الله -عزَّ وجلَّ-في كتابه؟ {وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ}[2] فالظن أردى صاحبه.

المعنى أن أمراض القلوب حتى تطهر لابد من دخول الإيمان.

أسأل الله أن يرزقني ويرزقكم الإيمان.

-إن شاء الله-نلتقي غدًا لنكمل هذه المناقشة حول موضوع الإيمان.

جزاكم الله خيرًا.

(1) "صحيح مسلم " (كِتَاب الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ /بَاب الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ/2999)

(2) [سورة فصلت: 23]

اللقاء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

اللقاء 2 ألقي يوم الأربعاء 1435/8/13هـ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله-عزَّ وجلَّ-حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا أن جمعنا هذا الاجتماع، ونسأله-سبحانه وتعالى-أن يكون حقًا لقاءنا من اللقاءات التي تحفها الملائكة ويذكرها الله-عزَّ وجلَّ-فيمن عنده؛ ولذلك نسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يكون مخرجنا من بيوتنا مخرج صدق، ويكون مدخلنا إلى العلم مدخل صدق، وأن يكون هذا كله سببًا لرضاه-سبحانه وتعالى-عنَّا وكفارة لذنوبنا، وهذا أحد الأبواب العظيمة لكفارة الذنوب، وهو حضور مجالس العلم، فإن مجالس العلم أهلها إن صدقوا-نسأل الله أن يجعلنا من الصادقين-يقال لهم: قوموا مغفورًا لكم!

فمن أراد سببًا من أسباب كفارة الذنوب، فليصْدق في نيَّته في الاجتماع حول العِلم.

موضوعنا كما مرَّ معنا حول طهارة الوجدان استعدادًا لرمضان.

ودائمًا هذا الوقت تأتي نقاشات حول الاستعداد لرمضان، وهذا من عناية المسلمين برمضان-الحمد لله-كوننا نهتم كيف نستعدّ لرمضان هذا مؤشر خير وبركة، لكن كما اتفقنا البارحة التركيز كله حال الاستعداد يجب أن يكون على قلوبنا. لماذا على قلوبنا؟

أمس استحضرنا بعض الأدلة على أهمية القلب، وكانت جملة مهمة جدًا عليها ندور، أنت تريد صيامًا مقبولًا كما أنك تريد صلاةً مقبولة كما أنك تريد طاعة دائمًا في حياتك مقبولةً.

ما شروط القبول؟

1. الإخلاص.
2. والمتابعة.

والمتابعة اليوم بفضل الله علينا-خصوصًا في هذا البلد المبارك-أصبح شأنها يسير؛ لأن المتابعة معرفة سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-معرفة صحيحة، تعرف ما هو صحيح السنَّة، وتقوم بالفعل مطابق لسنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-

مثلًا لو نتكلَّم عن رمضان، التعجُّل بالإفطار يعتبر من سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وتأخير السحور من سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-القيام من سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-فالحمد لله الأمر متبيِّن، بقي أنه في أثناء هذه الأعمال التي عرفت أنها من السنَّة أن يكون قلبي خالصًا في هذه الأعمال.

وعلى قدر تكرار كلمة (خالص) على قدر غموضها وصعوبتها، وهذه الكلمة لو تحققت أصبح الإنسان في خير وبركة.

ما أطيب حياة هذا المخلص الذي لا يفكر إلَّا في رضا واحد، (أخلَص نفسه) أي: خلَّصها، فالتخليص والإخلاص أمر يحتاج إلى مجاهدة وبذل جهد، وإلى معرفة كيف تخرّج العلائق، فأنتم لو تصورتم هذا المخلِص كيف يخلِّص نفسه من العلائق كما تخرج شوكة من كومة صوف، ماذا سيحصل؟ سيبقى الصوف متعلِّق بالشوك، كم تحتاج أن تنقي هذا الشوك حتى يخرج منه الصوف!

إذا بذلت جهدك في الحياة أن تخلِّص نفسك من العلائق، أتت لحظة الموت (لحظة الانفصال بين الروح والجسد) وأصبح الأمر يسيرًا؛ جزاءً لكونك بذلت جهدك في التخليّص، ولذلك تتلقَّى الملائكة روح هذا العبد وتقول له: {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ} فيما ستستقبلون، {وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}[1] على ما مضى وتركتموه، لأنهم سيتركون الدنيا ويُقبلون على شيء، غالبًا النفوس تحزن على المتروك، والآتي الإنسان غالبًا يخاف منه، فماذا تقول لهم الملائكة؟ أما الذي ستستقبل فلا تخاف، وأما الذي تركته فلا تحزن، ويكون الإنسان عاش من المجاهدات التي توصله لهذه السهولة واليسر، نسأل الله-عزَّ وجلَّ-من فضله.

المقصد أننا نريد أن نعايش الإخلاص ليس لفظًا إنما حقيقةً لأن الإخلاص عمل يقوم به القلب.

الإخلاص ليس عمل الجارحة، أنت تصوم ببدنك وتمتنع عن الأكل والشرب، لكن ما مقصدك من هذا الصيام؟ هذا فعل القلب، ما أصعبه فعل القلب! اسمه قلب لأنه يتقلَّب، واسمه فؤاد لأنه يتَفأَّد، أي: أنه كل مرة تأتيه فكرة جديدة فيجد نفسه في حالة من الانتقالات، وتجد في وجدانك ما لا يجده الإنسان في جوارحه من جهة التقلُّب، أنت في وجدانك تشعر بالمشاعر التي تشعرها حواسك؛ عندما يلسعك شيء، هل جلدك الذي يحس أو قلبك الذي يشعر؟ القلب هو الذي يشعر، إذا لم يصل الإحساس للقلب لا تشعر، كما لو أخذت بنج، يُفقد الإحساس بين العضو وبين قلبك، فإذا فُقد الإحساس رغم تألُّم المنطقة أنت بقلبك لا تحس بها.

لذلك نفعل الذنوب ولا نحس بها؟ يكون القلب خُدِّر وبعُد عن الإحساس.

المقصد الآن أن الاستقبال لرمضان لأعايش الإخلاص، ليس كلمةً إنما فعل شديد على الإنسان، تحتاج أن تصاحبه في كل وقتك، ولتصبح حركة القلب لينةً على الإخلاص لابد من حصول الطهارة.

هذا القلب سيقوم بفعل الإخلاص، فما المصلحة عندما يكون مخلصًا؟ أهم المصالح أنك تصبح مقبولًا.

العاقل يعرف أنه لو ركَّز في الإخلاص سيحصل له: القبول ومضاعفة الأجر للعمل.

تُقبل وتُضاعف أجورك على قدر استحضارك لمقصدَك.

الإخلاص معناه: عمل القلب. ولا يستطيع القلب أن يعمله إلا إذا كان طاهرًا، وهذا الإخلاص الفائدة منه عظيمة جدًا وهو أن تُقبل ويضاعف أجر عملك، متى يُقبل عملك ويضاعف أجر عملك؟ عندما تعرف مقصدك، يعني: ماذا تريد؟

(1) [سورة الأعراف: 49]

ما هو تعريف الإخلاص؟ الإخلاص أن يكون مقصدك من أي طاعةٍ تقوم بها أن يرضى الله، مقصدك ثناء الله، مقصدك هذا يجب أن يكون مستحضَر ليس كلمةً تقولها على لسانك أو تفقد ذكراها في وقت قيامك بالعبادة.

نقارن بين شخصين في حُكم قيامه بالصيام وفي حكم رفع درجته بهذا الصيام:

شخص صام ونام النهار كله، وقام للصلوات وأفطر في المغرب، من جهة صيامه قام بالصيام، قام بالركن، السؤال: كم تمتَّع هذا بالإخلاص؟ هل عايش هذا الإخلاص؟ لم يعايشه؛ لأن الإخلاص أثناء قيامك بالعمل تبذل جهدك أن تذكِّر نفسك أنك تريد بهذا الذي تفعله أن ينظر الله إلى قلبك فيُثني عليك، ويقبلك، ويرفع درجتك، وكلَّما زاد التفكير في أن الله ينظر إليك وأنه-سبحانه وتعالى-يرضى على فعلك، وأنت تفرح برضاه عن فعلك، وتطلب منه أن يكمل لك هذا الفعل، كلما اشتغل العقل أكثر بهذا المقصد كلما كان صاحبه مضاعف الأجر أكثر!

إذًا الإخلاص هو أن يُخلِّص الإنسان نفسه من طلب ثناء غير الله إلى طلب ثناء الله وحده، وهذا يمكن أن يبدأ من أول يومك، أنت من أول يومك لا تريد إلَّا ثناء الله ولا تريد ثناء غيره، لكن كيف يزيد الأجر ويضاعَف؟ باستصحاب أنك تريد ثناء الله، وكلما زاد الوقت الذي تستحضر به هذا المقصود كلما زاد الأجر، وكلما نقص الوقت وتفقد وتنسى ويكون كل تفكيرك متى الإفطار ومتى تبل عروقك كلما كانت المضاعفة هذه أقل.

الإنسان المخلص له درجات في إخلاصه:

- يبدأ إخلاصك بأن تقصد بعملك وجه الله لا تريد وجه غيره.
- ثم يزيد قوة الإخلاص كلما فكَّرت في العمل الذي تقوم به، وتذكِّر نفسك أن الله مطَّلع عليك وأنه يراك وأنك تريد أن يقبلك ويرفع درجتك وأن هذا الأمر يحبه الله، وأنت في حال ترجو من الله أن يحبك وتطلب من الله-عزّ وجلّ-أن يقبلك، فبقاء هذا الشعور هو بقاء واستمرار الإخلاص.

من أين نأتي بقلب يبقى طوال الوقت مستحضرًا أنه يريد وجه الله؟ هذا مقصدنا أنت تريد أن تكون مقبولًا ومضاعفًا في حسناتك وقت قيامك بالعمل، طهِّر فؤادك لكيلا يشتغل بغير الله.

ما هو فساد الفؤاد؟ فساد الفؤاد أن يشتغل بغير الله، وأن يكثر في قلبه ذكر غير الله، ولا يفسد الفؤاد إلَّا إذا اشتغل بغير الله، ولا يفلح الفؤاد ويصلح إلَّا إذا اشتغل بذكر الله، (ذكر الله) ليس الكلمة التي تجري على اللسان فقط! (ذكر الله) يعني الإيمان واليقين أننا سنلقى الله، وأنه ينظر إلينا وأنه يحب العمل الذي نقوم به، وأن رمضان له صفة خاصة عند ربنا، وأن قراءتنا وصدقتنا كل هذا ينظر إليه الله-عزَّ وجلَّ-ويقبله، وحين نلقاه ستخرج في صحائفنا.

فالقلب مشغول يفكر: في الله ورضاه ولقاه.

لنرى نهار رمضان وتقسيمه، ونرى الواقع، وقت صلاة الظهر من المفترض أن نجمع قلوبنا على أن الطاعة هنا أمر عظيم، وأن الصلاة يحبها الله-عزَّ وجلَّ-لكن في غالب أوضاعنا بماذا يكون القلب منشغل؟ في الغالب يكون مشغولًا بالمطبخ، نحن نقول لأنفسنا: إن هذا شيء طبيعي أن أفكِّر، عندما أكون مهمومة بشيء طارئ عليَّ-ضيوف مثلًا- والمفترض أن أطبخ غدًا. أنا أطبخ لكن عقلي مع الهم الذي يهمني، فلو كان في القلوب حياة وهموم، ستقل درجة انشغالها بهذا الأدنى، لكن نحن كل المشكلة التي يجب أن نفكر فيها، ما هي همومنا؟

الإيمان يجعل همومنا عليَّة، نفكر في الله ولقاه ورضاه -عزّ وجلّ-.

ما هو الإخلاص؟ أن يكون القلب وقت القيام بالعمل يرجو الله، خالص لله لا يلتفت لغير الله.

- ما هي الأمور التي يمكن أن تكون غير الله في قلوبنا؟

كل شيء يشغلنا عن ثلاثة أمور:

1. رضا الله.
2. قبول الله.
3. لقاء الله.

عندما تضعف هذه المشاعر؛ بسبب دخول مشاعر أخرى دخلت بدلًا عنها، وهي كما قلنا: {ألهاكم التكاثر}[1]، فالتهاء الإنسان بالتكاثر يجعل همومه التي يجب أن تكون مصروفةً ثلاثة أمور: في الله ورضاه ولقائه، هذه الهموم بدلًا من أن تكون موجودةً وواضحةً في ذهن الإنسان، يلتفت عنها للهموم الأدنى! إذا حصل التفات ماذا يحصل؟ كذلك القلوب تلتفت عن الله، أقل شيء يمر علينا يشغلنا، والمصيبة الكبرى تصور وأنت في الصلاة عينك في الأرض وقلبك في مكان آخر، والله ينظر إلى قلبك وأنت تنظر لغيره بقلبك! فهذه الحال التي نمر بها تستطيع بسهولة تمثليها في الواقع، وانظر لو كان أحد يكلِّمك وعينك في مكان آخر، ماذا يكون رد فعله؟ يغضب-وهو بشر-آخر حدوده أني أراضيه يرضى، فكيف وأنت عبد ضعيف بين يدي الملك العظيم، وقد فتح لك الباب أن تقف بين يديه فتطيعه ويرفع درجتك وأنت عنه ملتفت وينظر لك وأنت قلبك بهذه الصورة! هذا الشيء لابد أن نشعر به؛ لأن مشكلتنا أننا نشعر أنه يكفينا أن قمنا بالعمل بجوارحنا!

فكّروا في إبراهيم-عليه السلام-في مكة وبنى البيت وقام بما يجب عليه وائتمر، ثم ماذا يقول بعد ذلك؟ {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[2]، انشغاله بالقبول وهو نبي يدل على أننا نحن من باب أولى، فهو يريد الله في عمله ويفكر في لقاه ويحمل هم قبول الله. فلابد أن نطهر قلوبنا من العلائق.

(1) [سورة التكاثر: 1]
(2) [سورة البقرة: 127]

ما الطريق لتخليصه من العلائق؟ تصور كأس ماء لو وضعنا فيه نقطة حبر سيتغيَّر لونه، لو وضعت عليه ماءً صافيًا وسكبت وسكبت ماذا سيحصل؟ سيعود مرةً أخرى صافيًا، كان في البداية قليل الماء سيختلط اللون، لكن لو زدت وزدت سيخرج اللون الآخر ويبقى الصافي من الماء.

اتفقنا أن نتعلم عن الله-عزَّ وجلَّ-أسماءه وصفاته وأفعاله، فإذا عرفت ذلك عن الله-عزَّ وجلَّ-سينشغل عقلك برؤية آثاره أفعاله ثم سينشغل قلبك بالتنقية، تنقي قلبك من كل أحد غير الله.

هذا الكلام هو الذي نريد أن نبحث عنه الآن، ونريد أن نعرف كيف يكون في قلوبنا غير الله؟ وكيف تكون التنقية؟ حتى نستعد لرمضان يجب أن نعرف أن الله لا ينظر لصورتك أثناء الصيام بل ينظر لقلبك.

كل الخواطر الرديئة التي تمر على خاطر الإنسان وقت الصيام تُضعف مكانة الصيام عند الله خصوصًا لو كانت هذه الخواطر الرديئة مستقرة ودائمًا تتكرر عليه، حقد، حسد، هذه الأمراض لو تكررت في القلب ستفسد عليه قلبه ويصبح قلبه غير جاهزًا لقبول الإيمان، هذا لو كنا نتكلم عن الرديء.

من جهةٍ أخرى، هذا القلب الذي ينظر الله-عزَّ وجلَّ-إليه، إن بقي مستشعرًا ما يفعل، قبِل الله-عزَّ وجلَّ-عمله وزاد منزلته عند ربه.

إذًا وقت الصيام الله-عزَّ وجلَّ-ينظر إلى قلوبنا، إذا اتفقنا على هذا صار كل العناية بقلوبنا قبل أن ندخل الشهر وأثناء الشهر، ماذا تريد أن يحصل من قلبك؟ في كلمة واحدة: نريد أن تكون قلوبنا خالصةً لله، ليس لديها شيء آخر غير الله، أي لا تفكر إلا في الله وفي رضاه وقبوله ووقت لقائه ماذا يكون حالها؟ هذا هو الإخلاص.

المُخلِص أثناء عمله يفكر في الله-عزَّ وجلَّ-فقط، ولا يلتفت قلبه أبدًا لغيره.

لكن هذه المسألة على قدر سهولة الكلام عنها على قدر صعوبة وقوعها وتنفيذها.

عندما تدخل علينا المشاكل والهموم في قلوبنا، العمل الروتيني الذي نقوم به، نقوم كالآلة فيه بأبداننا وقلوبنا تبقى مشغولة بهذا الهم الذي أنا مهتمة به؛ لذلك الذي يجب أن يتغير هو: الهم لأن أكثر شيء يريد أن يدفعه الإنسان عن نفسه همومه خائف يدفع الهموم، عندما تكون الهموم دنية؛ خائف ألَّا يجد شيئًا يفطر به، خائف ألَّا يأخذ غفوةً وينام جيدًا، خائف أن يتعب، خائف أن تؤلمه قدمه، خائف رأسه يصدِّع، خائف طوال الوقت، وتارك خوف مهم جدًا وهو خوفه وقت لقاء الله! ماذا ستكون منزلته وكيف يسبقه السابقين، وهو غير خائف أن يسبقوه وهو منحبس عنهم! لا يفكر هناك، يفكر هنا؛ لذلك يحصل التكاثر في الدنيا بسبب وجود هَم يهتم به الإنسان، لا يريد أن يسبقه أصحابه فينجحوا، لا يريد أن يكون أصحابه أكثر أناقة منه؛ فيسرع ويسرع في كل بابٍ من أبواب التكاثر من أجل أن يدفع هذا الهم ويكون أحسن

واحد، والذي سيلقاه عندما يلقى الله ليست من همومه ولا من أفكاره ولا يبحث عنه؛ لذلك يكون التكاثر في الدنيا سبب لموت القلب.

ماذا ينبغي علينا فعله ليقبلنا الله في رمضان؟

الإخلاص، الذي هو عمل للقلب، وهذا القلب حتى يستقر ويكون في أحسن حال يجب أن يكون فيه قاعدة من الإيمان حتى تحصل العناية والاهتمام بلقاء الله وينسى ويسقط الدنيا التي حوله إسقاطًا لا يفسد عليه مسؤولياته.

نحن لا نريد إسقاط مسؤولياتنا لكن ليس من الازم أن تكوني بكامل قواك العقلية وتركيزك كله في الطبخ الذي تطبخينه! ولا في نظافة منزلك الذي تنظفينه تكونين بكامل قواك العقلية هناك ما يشغلك وتفكرين فيه، وبالمناسبة نحن لا نكون بكامل قوانا العقلية ونحن نطبخ أو ننظف أو نكنس لا، نكون نفكر في فلان وعلّان والسوق...إلخ، هناك مشاغل في قلوبنا غير الذي نقوم به، أصبحت قلوبنا كأنها في دوامة تدور فيها وننتقل من هذا الاهتمام إلى هذا الاهتمام، إلى أن يأتي وقت يقول الإنسان فيه: يا ليتني قدَّمت لحياتي! في ذلك الوقت يكتشف أن الحياة ليست هذه الحياة! بل كانت الحياة أمامه وما استعدَّ لها ولم يعمل لها.

بقي جواب السؤال المهم: كيف أصل إلى طهارة الوجدان؟

وظيفة العين أن تبصر، ووظيفة الأذن أن تسمع، والقلب وظيفته الحقيقية هي الشعور.

تبصر بعينك وتسمع بأذنك وتشعر بقلبك، الأزمة أن يموت شعور القلب.

كيف يشعر الإنسان بموت شعور القلب؟

الله خلقنا بفطر سويةٍ وسهَّل علينا مسألة الإيمان، فمن المفترض أن الإنسان يرى آثار كمال الله وصفاته، ويشعر بآثار كمال صفات الله في كل حالة من حياته؛ هنا يلطف بك فتشعر بلطفه، هنا يجبر كسرك فتشعر بجبْره، هنا يختبرك تصبر أو لا تصبر فتشعر باختباره، وهنا يضيّق عليك شأن ويرى رضاك وعدم رضاك فأنت تشعر أن المطلوب منك أن ترضى، وطوال الوقت أنت عبد يناجي الرب (ارزقني، أعطني، احفظني، احميني) يأتيك الشيطان بمخاوف ومفاسد، أنت تناجيه وتشعر بقربه وتشعر أن هذا تسلط عليك اختبارًا، {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً}[1] هذا ربي يفتنني به ويراني هل أصبر أم لا أصبر؟ وهذا أعطاني إياه يراني أأشكر أم لا أشكر، أألتفت له أم لا؟

فالقلب الحي دائم الشعور بآثار صفات الله ومعاملة الله له مرةً أخرى، أي متى تكون الأذن حيَّة؟ عندما تسمع.

العين متى تكون حية؟ عندما تبصر.

(1) [سورة الفرقان: 20]

والقلب متى يكون حيًّا؟ عندما يشعر. يشعر بالدنيا وآلامها؟! لا، المشكلة أن كل قوتنا الشعورية منصبة على الدنيا وأهلها، لو أحد قال لك كلمة تبدأ الجروح والآلام صحيح، والمواقف البسيطة تحصل وما أستطيع أن أتخطَّاها، ونقول لأنفسنا: نحن حسَّاسين! الحساسية ارتفعت بسبب أن ملكة الشعور التي عندك سُلِّطت على الدنيا، وسلطت على مكانتك عند الناس وسلطت على مشاعرك تجاه الدنيا، لكن لو سلطت مشاعرنا على (مَن نحن عند ربنا؟) لغفلنا عن الدنيا وأهلها، حتى لو حصل إيذاء سأجده يوم القيامة، سيكون محبوسًا لي، وهذا تحقيق لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ}، هذا اختبار أأرضى أم لا أرضى؟

إذًا القلب الحي يشعر لكن ميزة شعور القلب الحي أن يشعر بالله ومراقبته، وبآثار معاملة الله لعباده بصفاته.

اتفقنا البارحة لنحيي قلوبنا علينا أن نؤمن بالله وبكمال أسمائه وصفاته، وأفتح عيني جيدًا سأرى آثار صفات الله في حياتي، ماذا تحتاج مني صفات الله؟ أشعر بها، نشعر هنا لطفه، وهنا رحمته، وهنا عطاؤه وحفظه، هنا تنبيهه لي، هنا تأديبه لي، هنا تربيتي، هنا أعطاني مثال ونموذج وقال أنت حالك مثل حال هؤلاء احذر أن تكون مثلهم، وهنا أراني أمر أبصره بعيني وأعرف منه أن فرجه قريب، وهنا علمني أن البركة من الله-عزَّ وجلَّ-أهم من أن يكون عندي الشيء الكثير.

إذًا الشعور بالله ومراقبته وبآثار معاملته هو دليل حياة القلوب.

إذا صرفت مشاعرك التي وهبك الله إياها في الدنيا وما يتصل بها، لن تجد عندك مشاعر تصرفها في الشعور بمراقبة الله ومعاملته، ما وهبنا الله-عزَّ وجلَّ-مشاعر الحب والخوف والرجاء، هذه المشاعر وهبنا إياها لنقترب منه ولنصرفها للوصول إليه لا لنصرفها على العالم، وعندما نقف بين يديّ الله-عزَّ وجلَّ-ما نجد في قلوبنا المحبة ولا نجد في قلوبنا الخوف ونجد نفسنا نرجو أموالنا التي في البنوك ونرجو صحتنا ونرجو الطبيب!!...إلخ. فهذه مشاعر الرجاء وزعناها على كل الناس، ثم نقول: المفترض أن يكون رجائي كله لله لكن لا أجد هذا الشعور! السبب أننا صرفنا مشاعرنا في كل شيء، أنت كأنك تحتاج إلى حالة من البخل الشعوري على الأشياء التي حولك، تنزع ثقتك في كل أحد وتضعها فقط في الله.

ماذا نقول في أذكار الصباح والمساء؟

- (حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم)[1] (حسبي) أي: كافيني، فأنت تقول لله: أنا أشهد أنك تكفيني، هذا كلام اللسان أين مشاعر القلب الآن؟! أين القلب هذا الذي يشهد أن الله كافيه وهو يتحسس الكفاية عند الناس؟! ولا يكتفي بما يعطيه الله ولا يظهر رضى لله!

(1) ((من قال حين أصبح وحين أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، سبع مرات كفاه الله ما أهمه)) هذا الحديث موقوفًا ومسندًا فأما الموقوف: فقد أخرجه أبو داود في سننه، وأما المسند: فقد أخرجه ابن السني في (عمل اليوم والليلة) (ص36-37) برقم (71)، وبنحوه مع ذكر زيادة: (صادقًا كان بها أو كاذبًا)

➢ نقول لله-عزّ وجلّ-: (لا تكلني إلى نفسي طرفة عين) وطوال الوقت أشعر أن قراراتي بنفسي وفهمي وشعوري تجاه نفسي أني لا أخطئ! أقول كلام والمشاعر عكسها! إذًا تبين لنا أين الأزمة الحقيقية؟ موجودة في قلوبنا.

اتفقنا أمس أن صلاح الجسد مبني على صلاح القلب والعكس بالعكس، فساد القلب سبب لفساد البدن. تأمّل كيف أننا في الطاعات نَجُرّ أبداننا؛ لأن قلوبنا ميتة وفاقدة للإحساس ماذا سيحصل غدا؟ ماذا سيكون في الظلمة؟ ماذا سيكون وقت لقاء الله -عزّ وجلّ-؟ كيف سيخرج الناس ويحملون أوزارهم على ظهورهم؟ الإنسان لما يسافر على قدميه في الحج يتخفف من الأثقال التي يحملها، ويوم القيامة تصبح أوزاره هذه عبارة عن شيء حسيٍّ يحمله على ظهره {أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}[1]، تشعر بنفسك فيك شيء من الكِبْر وما تستحضر أن هؤلاء المتكبرين يصبحون أمثال الذَّر يطؤهم الناس بأقدامهم! أمراض كثيرة ولا يحصل منَّا بذل جهد لاكتشافها وعلاجها، والسبب: أن كل الشعور متوجِّه إلى الدنيا ومخاوفها ومحابها، ومن ثمَّ النتيجة الأخيرة تأتي أوقات الطاعة فلا يستزيد القلب من أسباب الإيمان.

ما الحـــل؟ اتفقنا البارحة أن نتعلَّم عن الله-عزَّ وجلَّ-وأسمائه وصفاته وأفعاله، إلى أن نصل إلى حالة من إحساس القلب بالله وبقربه وبكمال صفاته، وكلَّما زاد وقت الإحساس بهذه الحقائق كلَّما زاد وقت الانتفاع من هذه الحقائق.

بمعنى: الأزمة التي نعيشها هي أزمة التفكير، عقلك في أي شيء يفكر؟ ما هو الشيء الذي يهمه؟ ماذا نحتاج بعد المعرفة والتبصُّر في أحوالنا؟ علينا أن نكثر من عملية التفكير.

من الأدلة على مكانة القلب:

في سورة الأنفال يقول الله -عزّ وجلّ-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأسرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[2]، خطاب للنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-الشاهد: وأن الله-عزَّ وجلَّ-إذا علم في قلب العبد خيرًا أعطاه خيرًا مما في قلبه.

المقصد من هذه الآية: أن الله-عزَّ وجلَّ-لا ينظر إلى ظاهرك، أنت قد تدَّعي بلسانك أنك تريد رمضان وتحبه، لكن هناك أسباب في قلبك لحبه غير رضا الله، والله مطَّلع على ما يدور في خاطرك، مطَّلع على ما هو موجود في قلبك. وإن عَلم-سبحانه وتعالى-أنك حقا تريده؛ سيعطيك خيرًا مما تقوله وتظنه.

وأيضًا مما يدل على أن القلب له مكانة: شدة حرص المؤمنين على الأدعية المتصلة بالقلوب، مثلًا ورد في القرآن أن المؤمنين يقولون: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا}[3] في قلوبهم خوف من زيغ القلب؛ لأنهم يعلمون إذا زاغ القلب تزيغ الجوارح، لذا كان من دعائهم: ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ، وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ

(1) [سورة النحل: 25]
(2) [سورة الأنفال: 70]
(3) [سورة آل عمران: 8]

الرَّاشِدِينَ))[1]، بمعنى: يطلبون من الله أن يحبّب الإيمان إلى قلوبهم ومعنى تحبيب الإيمان في القلوب: أن القلب إذا أحب الإيمان صلح. فهذا شاهد على مكانة القلب.

أيضًا من الشواهد: قول النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دينك))[2]، ((يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قلبي على طاعتك))[3]، المقصود أن دعاء النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-هذا يدل على أن القلب له مكانته وأنه يتقلَّب وأن على العبد أن يهتم به.

من الأسباب التي تجعلنا نهتم بحال القلب:

1- أن القلب مصدر الأعمال والاعتقادات قال تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا}، ماذا وهبكم؟ {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[4]، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))[5].

2- الأجر والثواب يكون على مقدار ما في القلب من النية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))[6].

3- القلب سريع التقلُّب، فيجب أن تكون شديد العناية بهذا الذي هو سريع التقلب، وقد ورد في الحديث: ((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ))[7] المقصد: أن قلوب العباد كلهم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب رجل واحد من عظمته-سبحانه وتعالى-وقدرته على تصريفها فيصرفها حيث يشاء، وعندما نقول: (حيث يشاء) فهذا تابع لحكمته، فأنت لا تسمع عن مشيئة الله إلا تسمع عن حكمة الله، فالقلب لا ينقلب على صاحبه إلا إذا كان صاحبه قد ابتدأ في الزيغ؛ لذلك الله-سبحانه وتعالى-في القرآن يقول: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ }[8]، في المقابل الصنف الثاني: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}[9]. إذن تقليب القلب هذا أمر الرب، لكنه -سبحانه وتعالى-لا يقلِّب قلوب العباد إلا على حسب حال العبد؛ لذلك عليك العناية بقلبك، فقلبك سريع التقلُّب، ولما تشعر في لحظة من اللحظات أن رمضان هذه السنة غير لأنك مستعد وقد فعلت وفعلت، ما تجد نفسك إلا تصبح وقد ذهبت همَّتك، وذهبت قدرتك، وذهب حماسك! ما سبب حصول مثل هذا؟ لماذا ينقلب قلبك عليك في مثل هذا الموقف؟ لسبب مهم وهو اعتمادك على نفسك في تحصيل الخيرات، وذهب منك اعتقادك أن القلوب تنقلب على أصحابها، وأن ليس لنا حول ولا قوة إلَّا بالله، فطهِّر قلبك من مثل هذه المفسدات.

---

(1) المستدرك على الصحيحين، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(2) رواه الترمذي (3522)، وصحَّحه الألباني.

(3) رواه أحمد في مسنده (9420)، وصححه لغيره شعيب الأرناؤوط.

(4) [سورة النحل: 78]

(5) "صحيح البخاري" (كِتَاب الْإِيمَانِ/بَاب فَضْلِ مَنْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ/52) ومسلم (كِتَاب الْمُسَاقَاةِ/ بَاب أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ/1599).

(6) "صحيح البخاري" (كتاب بدء الوحي/باب بدء الوحي/1)

(7) "صحيح مسلم" (كِتَاب الْقَدَرِ/بَاب تَصْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَى الْقُلُوبَ كَيْفَ شَاءَ/2654)

(8) [سورة الصف: 5]

(9) [سورة محمد: 17]

أيضًا في حديث أنس يقول-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((مثلُ القلبِ كمثلِ ريشةٍ بأرضٍ فلاةٍ تقلبُها الرياحُ))[1]. الريشة في الصحراء غير الريشة في المباني؛ الريشة في المباني تصطدم بمبنى تبقى فيه، لكن الريشة في فلاة، ستبقى تلعب بها الريح، فتصور قلوبنا مثل هذه الصورة بالضبط، أنها تتقلَّب تتقلَّب، فما لنا إلا التوسُّل إلى الله أن يثبِّتها في مكانها.

4- الأمر الرابع المهم الذي يجعلنا نهتم بقلوبنا ويكون نظرنا كله فيها: أن الشياطين تلقي الوساوس في قلوب العباد فتؤثر على عمل العبد ومعتقده وتصوراته.

وهذا أكثر ما يكون في النساء وأكيد تسمعون الوسواس والوسواس القهري وأنهم خاصة يطيلون في الأوهام والشكوك وفي الوضوء وفي الصلاة وفي أمور كثيرة يشكُّون فيها؛ والسبب في ذلك أن القلب عندما تبدأ تظهر فيه علامات الفساد ماذا تفعل به الشياطين؟ تستلمه الشياطين مباشرة، وفي أحيان كثيرة هو يشعر أنها زيادة طاعة! مثلًا: تتوضأ، فيبدأ الشيطان يجربك تجربة، فالذي لا يعرف الشيطان يسير معه، يجربك الشيطان فيقول لك: ما غسلت وجهك، ما غسلت قدمك، فتعيد الوضوء ويأتي الوضوء الثاني ويفعل بك نفس الفعل، والثالث أيضًا يفعل، إذا استجبت له عرف ضعف قلبك، إذا استجبت يزيد ويزيد.

ومثله يلقي على العبد وساوس من جهة ظنونه: هؤلاء يكيدون لي، هذا لا يحبني، هذا لا يرغبني، إذا استجبت وما دعوت لإخوانك تزيد المسألة وتزيد الوساوس حتى يجد الإنسان نفسه لا يستطيع أن يتصل بأحد ويمتلئ قلبه حقدًا على الناس من حوله، يصل الشيطان بوساوسه إلى إفساد القلب؛ لأن القلب إما في ذكر الرحمن أو في وسوسة الشيطان، ولا يغرك الشيطان فمن وساوس الشيطان أمور متصلة بالدين من وساوسه أن يشوِّش عليك شأن دينك، شأن الصلاة، شأن الوضوء شأن التكبير، فيبقى الناس مثلًا بالساعات يتوضؤون مستجيبين لوساوس الشيطان، ولا تظنوا مثل هذا قلب امتلأ إيمانًا، بل هذا قلب استولى عليه الشيطان لابد من الطرد لابد من الطرد! أول حلول الوسوسة كثرة ذكر الله؛ لأن أثر كثرة الذكر طرد الشياطين.

قال ابن عباس-رضي الله عنه-: ((الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خَنس))[2].

يجلس على القلب ينتظر من الإنسان الغفلة، الغفلة ما صورتها؟ الالتهاء، يعني يشغلك أحد غير الله، ما معنى البعد عن ذكر الله؟ أي أن تذكر أحد غير الله، ويكون قلبك مشتغل بغير الله، وهذا الاشتغال يكون في اليوم والليلة ويكون في الحياة.

طوال السنة نقول لأولادنا: ادرس، ذاكر، يختبر نص السنة، إلى نهاية العام ونحن طوال الوقت أكثر شيء يشغلنا معهم أن يدرسوا! ثم انظر لأمرهم بالدين وأمرهم بالصلاة والطاعة تجد هذا كله ضعيف في مقابل عظمة الورقة التي سيحضرها آخر العام! وفي مقابل هذا كله ما به؟ تدبّ! ما هو الشيء الذي يهمك! هذه كلها وسائل توصلك إلى ما يريد الله، المقصد أن هذه الغفلة سببت للإنسان أن يوسوس له الشيطان ويخوفه إلى أن تنتهي كل الحياة بنفس الطريقة.

(1) معجم الشيوخ/إسناده حسن غريب
(2) تخريج مشكاة المصابيح/إسناده صحيح/2221

الآن أكثر ما يشغل الآباء في العطلة كيف يرفهون عن أولادهم؟ طوال السنة مشغولين كيف يمتحنون؟ وآخر السنة كيف نرفه عن أولادنا؟ ماذا نخطط لهم؟ وكيف نخرجهم؟ ففي النهاية سنة كاملة، وليست سنة ننتهي من واحدة تأتي الأخرى الإنسان سها وغفل والشيطان وسوس وسيطر.

ومثله هذا في نهار رمضان وفي ليل رمضان، الشيطان جاثم على قلب الإنسان.

نحن نعرف أن الشياطين تصفّد، لابد أن نفهم جيدًا هذه المعلومة أن الذين يصفدون هم المردة، الكبار الذين تعظم وسوستهم للناس سيحبسون، لكن يبقى مع الإنسان قرينه من الشياطين، يبقى غيرهم من شياطين الإنس وهم أشد قوة علينا! التصفيد مساعدة للإنسان ليخرج من الأزمة لكن الذي يكون طوال حياته في مدرسة الشيطان، يأتي رمضان وتتصفَّد الشياطين ويبقى شياطين الإنس معه على أقل تقدير.

كوننا نهتم بقلوبنا ونجعل العناية بها سبب من أسباب الوصول إلى ربنا هذا أمر معلوم؛ لأن الشيطان يعلم أين جوهرك؟ فيفسده ليقطع الطريق بينك وبين ربك، فيطمئن الشيطان عليك.

ما أن يفسد القلب إلَّا وينقطع الطريق بين العبد وربه مهما قام ببدنه وجلس فالقلب هو سبب الصلاح وسبب الفساد كما تبين لنا.

5- القلب أداة يتمكن الإنسان بها من الفهم الصحيح يفرق به بين الحق والباطل {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} ثم ماذا جعل لكم؟ {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[1] ماذا تفعلون بأفئدتكم؟ تفهمون تُبصرون، فإذا اعتنيت بقلبك سيفهم فهمًا جيدًا.

نضرب مثالًا لترى كيف يفهم؟

الإنسان لا يخلو من ابتلاء في حياته بشخص يسلط عليه، يؤذيه، يعاديه، وأحيانًا بلوى واحدة فقط، الذي يسمع القرآن ويبصره، يسمع قوله تعالى في الفرقان: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ}[2] يفهم الإنسان أن الله جعل هذا الشخص فتنة، والله ينظر إلينا ماذا سنفعل بهذه الفتنة؟ وأمرنا بأمر واحد: (أتصبرون)؟ فإذا فهمنا أنه فتنة وأن الله يأمرنا أن نصبر سنصبر ناظرين إلى الله أن يرفع عنا البلوى. أما إذا لم نفعل هذا الفعل ولم نفهم هذا الفهم، ونظن أن هؤلاء الناس يملكون شأننا، وتبقى قلوبنا معلَّقة بعلاقتنا به، وأراضيه يوم وأخاصمه يوم، وأظن أني أدفع شره بيدي، أكون ما فهمت الحقيقة! القلب ما فهم عن الله مراده! مع أن الآية في سورة الفرقان يقرؤها الإنسان، لكنه يقرؤها بلسانه ويراها بعينه ويسمعها بأذنه لكن قلبه في وادٍ ثانٍ فمن ثَمَّ لا يفهم!

لذلك كل الآيات في القرآن التي فيها أمر أو تعجب من عدم التدبر إنما خوطب بها المنافقين والكافرين، قيل لهم: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}[3] لو تدبروا القرآن واشتغل قلبهم بمفاهيم القرآن لصلحت قلوبهم، لكن قلب فاسد يسمع ويرى من

(1) [سورة النحل: 78]
(2) [سورة الفرقان: 20]
(3) [سورة محمد: 24]

علامات الإيمان ومن مظاهر الإيمان ومع ذلك لا ينفعه ولا يفهمه! لذلك عندما نسأل أنفسنا: لماذا عندما نقرأ القرآن ولا نفهم ما يجب أن يكون، ونفرق بين الحق والباطل؟ نحن نقرأ قراءة جيدة وأصوات حسنة ومخارج حسنة، جعل لكم السمع والأبصار كلها تسقط في الأفئدة، إن طهر الفؤاد كما قال عثمان-رضي الله عنه-: "لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم"[1]. أي: كنتم شعرتم أنه علم وراء علم، وكلَّما قرأتم تفهمون خطاب الله لنبيه-صلَّى الله عليه وسلَّم-: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا}[2] أي: عظيمة معانيه، ليس من المرَّة أو المرتين ستفهم معانيه، ستقرأ وتقرأ وتبقى طوال حياتك تقرأ وكأنك ما قرأت، كأنك تقرؤه لأول مرة تفهم الآيات، هذا عندما تنزاح عنَّا المشاغل، وهذا الشعور نشعره في رمضان عندما نقرأ القرآن بتركيز وتصفَّى نفوسنا نشعر كأننا أول مرة نقرأ القرآن، يزول هذا الفهم عندما تذهب أداة الفهم-القلب-عندما يشتغل القلب بالمشاغل لا يفهم الإنسان، والذي فهمه اليوم يضيع غدًا؛ لأن مكان الفهم امتلأ بالتافه من الشؤون وامتلأ بالهموم التي لا قيمة لها.

لماذا نهتم بقلوبنا ونريد أن نطهرها ونرى أن النجاة كلها وراء تطهيرها؟ لأنها أداة الفهم، إن كانت طاهرة دخلت فيها المعاني وفهمنا الحياة، وفهمنا أن الأيام تنطوي، وأن الحياة حقيقةً هي التي ستقدم علينا، وفهمنا أن من يحيطونا من الناس ابتلاء وفهمنا قائمة من الأمور تصلح حياتنا وإذا لم يصلح قلبنا، تذهب كل هذه الفهوم.

المقصد أن في مقابل هؤلاء المؤمنين الذين انتفعوا بسمعهم وأبصارهم هناك من قال الله-عزَّ وجلَّ-في حقهم: {فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم}[3]، لماذا لم تغن عنهم؟ بسبب انشغال قلوبهم عن الله، فما استفادوا من سمعهم وأبصارهم ومن ثَمّ فسدت قلوبهم وأفسدت عليهم حياتهم.

6- أنّ الله تعالى سيسأل العبد يوم القيامة عن قلبه: أين كان في الدنيا؟ وفي آية الإسراء المشهورة: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[4]. أي أنك ستُسأل يوم القيامة: أين كان قلبك في الدنيا؟ ماذا تصنع بقلبك؟ نحن حريصين على ألَّا ننظر للحرام لأننا سنُسأل عنه، وحريصين على ألَّا نسمع الحرام لأننا سنُسأل عنه، بقي قلبنا! ما هي هذه الخواطر المستقرة فيه؟ ما هي الأمراض الموجودة فيه؟ أين العلاج؟ أين إخراج الأمراض؟ أين ملاحظتها؟ أنت ستُسأل عن قلبك أين كان في الدنيا؟ وتصوَّر على عدد الأيام!! أنت تستطيع أن تغمض عينيك ولا ترى شيئًا، وتسد أذنيك، لكن لا تستطيع أن تمنع قلبك من التفكير؟ فإذا لم تكن له قاعدة حسنة، ولم تضخ فيه علمًا حسنًا يُشغلك، ما جعلته يفكر فيما حوله، تسمعون في وصف أولي الألباب قوله تعالى: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[5] لم يصيروا أولي الألباب إلا لأن قلبهم دائم التفكير في الآيات الكونية والآيات الشرعية دائم التفكير، هذا الذي يشغلهم في كل شأن، تجدهم حتى لو أصابتهم الحمى-مثلًا-يفكروا في ارتفاع درجة الحرارة! أن كيف هذا الارتفاع

(1) كتاب الزهد لأحمد ابن حنبل، (363)، حديث موقوف (حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ ، حَدَّثَنِي أَبُو مَعْمَرٍ ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ)

(2) [سورة المزمل: 5]

(3) [سورة الأحقاف: 26]

(4) [سورة الإسراء: 36]

(5) [سورة آل عمران: 191]

سبب لإسقاط الذنوب من صاحبها، فهذه الحمى عندهم يفكرون فيها بالطريقة الصحيحة، أصبحت علَّتنا في أسلوب التفكير في الأشياء.

مثلًا يأتيهم من المال ما يأتيهم، فتكون قلوبهم واقفة خائفة أن تُفتن، وتطلب من الله أن يبارك، وتطلب من الله أن يجعله سببًا للقربى؛ ولذلك الله-عزَّ وجلَّ-في سورة يونس التي ابتدأت بالثناء على القرآن، أتت فيها آية عظيمة: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}[1] (مِّمَّا يَجْمَعُونَ) من ماذا؟ يجمعون من الدنيا، من المال، فعندما يجد نفسه فهم آية يفرح فرح ويستبشر بشرى لا يستبشرها عندما يزيدون راتبه! لكن ما هو الواقع؟ أن القلب مشغول.

المقصد ستُسأل عن قلبك وحركاته وانتفاضاته يوم القيامة، المشكلة ليست هذه فقط نحن أيضًا عندنا فهم خاطئ أن ما في قلوبنا لن نحاسب عليه ما دمنا لا ننطق به! وهذا بالطبع فهم خطأ لكلام الله.

النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-يقول: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))[2]، لم يقل: فعل ببدنه، وإنما قال: في قلبه مثقال ذرة! فالمقصد أن هذا القلب عندما تستقر فيه الشؤون غير عندما تمرّ خاطرة ولا تستقر، الشيء الوحيد الذي لا تحاسب عنه هو أن يلقي الشيطان في ذهنك شيء ولا يستقر في ذهنك فتتركه، أما ما يُلقيه الشيطان فيشغلك وتفكر فيه وتصبح هذه مشاعرك وترى نفسك أحسن من غيرك-في قلبك لم تتكلم ولا كلمة-تجلس بجوارهم في الحرم فتشعر بأنك أحسن منهم وتغمضهم-تغمض حقهم-ولم تنطق أي كلمة، انتهى الموضوع، هذا هو الكِبْر الذي لا يُدخل صاحبه الجنة!

المقصد أن قلبك له مكان وستُسأل عن قلبك أين كان، لا تتركه هائم على وجهه ثم تقول: لا يحاسب الإنسان إلَّا على عمل يعمله! الشيء الوحيد الذي لا يُحاسب عليه الإنسان: الخواطر السريعة التي لا تستقر. أمَّا الإرادات المستقرة أنت محاسب عليها.

كذلك يسميها العلماء الإرادات المستقرة.

بمعنى: أول فرصة تأتيك تخرج هذه الأمراض، وإذا لم تأتك الفرصة فهذا قلبك هذا حاله؛ لذلك نحن نشاهد أناس كثيرين كما نعبر بكلامنا: (جوابهم حاضر) بمجرَّد أن تقولي لهم كلمة، مباشرة يعطونك كلام يؤلمك، هذا الأمر إنما يكون من قلب مليء يغلي في الداخل، وعندما يذهب الموقف ولم يستطع أن يُجِب المرة الماضية يفكر ويفكر إذا أحد قال له المرة القادمة كذا سأقول له كذا، فالقلب مشتعل بأمراضه فعدم التنقية وعدم النظر للقلب تسبب أن يتراكم على القلب الخواطر ويتراكم على القلب الخيالات السيئة، وتتراكم على القلب التفكيرات في إفساد وفي ضرر الناس، ثم يقول: إذا أنا لم أفعل شيئًا فليس عليَّ ذنب!، وهذا فهم غير صحيح للنص، وأكيد نص الإسراء تام الوضوح أمامنا وأنَّا سنُسأل عمَّا في قلوبنا.

الجزء الثاني من الكلام: الطريق لتنقية القلب الإخلاص. ومعناه: تخليص النفس، ومعناها: تخريجها من الالتفات لغير الله، ويكون كل تفكيرك أنك واحد في الأرض لواحد في السماء، فلا يهمك غير الله ورضاه ولقاه.

(1) [سورة يونس: 58]

(2) "صحيح مسلم" (كِتَاب الْإِيمَانِ/باب تَحْرِيمِ الْكِبْرِ وَبَيَانِهِ/91)

نحن لا زلنا بشر تغفل نفوسنا لا بأس لكن أين المشكلة؟ أن تغفل وأنت تتركها. لأن أول ما تغفل النفس يوسوس الشيطان لها، وبمجرَّد أن تذكر الله يخنس الشيطان، الغفلة حال يمر بها المؤمن لكن المشكلة في كونك تغفل وتطول غفلتك، وأحيانًا تطول غفلتنا لدرجة أن تكون من السنة إلى السنة، يعني من رمضان إلى رمضان والقلب لم ينقَّ ولم يراجع ولم يفكر في حاله ولم يفكر ما هي الأمراض التي فيه!

من أهم الأسباب التي تجعل العقلاء يخلصون نياتهم لله-عزّ وجلّ-:

1- أن الإخلاص شرط لقبول العمل، ركزوا في الدليل حتى تتصوروا دلالته ورد عن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-كما في الحديث القدسي، قال الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه" وفي رواية "فأنا منه بريء"[1].

ماذا يعني ذلك؟ نبدأ في تقرير المسألة الأساسية، ماذا يعني (أشرك معي فيه غيري)؟ قلبك الآن بدأ العمل لله، لا تريد غير الله، وفي وسط القيام بالعمل شعرت أنك تريد ثناء الناس، أو أتى في قلبك أنك أعجبت بعملك، بمعنى: يمكن أن يكون الشريك مع الله نفسك؛ النتيجة: أن الله-عزَّ وجلَّ-يتركك وما أشركت، معناها أن هذا العمل يرد على صاحبه ولا يصبح له قيمة، حتى لو التفت قلبك يمينًا ويسارًا لا تفكر إلا في الله، طوال العمل لا تفكر إلَّا في الله.

انظروا نيَّة الإنسان هي تفكيره الذي في قلبه، أي أنا اليوم ماذا نويت؟ في قلبي حدَّثت نفسي أني اليوم قررت أن أصوم ثم عقدت هذه النية وقمت بالعمل إذًا كل النية والإخلاص دائر في القلب وهو حديثك الجازم مع نفسك، معنى ذلك أن كلامنا مع أنفسنا فيه التطهّير، أي يمكن أن نطهِّر أنفسنا ونؤدِّبها أو نلوِّثها أو نرغِّبها في غير الله أو نحبِّبها في الله، فكل هذا يحصل ونحن ماذا نفعل بنفوسنا؟

ونحن نحدِّث نفسنا بنفسنا، فالتربية والإخلاص نحن نقوم بهما لقلوبنا، بمعنى: تعلَّمتِ عن الله أنه رزَّاق وتعلَّمتِ عنه أنه-سبحانه وتعالى-خير الرازقين، وتعلَّمتِ عنه معلومات تجعلكِ تثقين فيه ثم جاءك موقف خذلتك نفسك وأصبحتِ خائفة أن يحبس عنك الرزق، ثم تقولين لنفسك: اعلمي أن الله رزاق وهو خير الرازقين واعرفي أنه قريب وكم مرة عشت واقف رزقني الله فيها!!!

ثم آتي وأسيء الأدب مع الله وأظن أنه يخذلني!!!هكذا أكلِّم نفسي حتى أأدبها.

فكل الإخلاص وضدّه إنما هو كلامك مع نفسك.

لا تظن الكلام مع النفس خيالات وجنون، أنت عندما تكونين غاضبة من شخص وتتمنين أن تأخذي حقك منه، ماذا تفعلين؟ وأنت تغسلين الصحون مثلًا تكلمين نفسك: لو وجدته أعمل له وأعمل له، وترين هذا فقط تخريج لما في نفسك فتثوِّرين قلبك وتجمعين الأحقاد فيه!!

(1) أخرجه مسلم (2985)، وابن ماجه (4202)، وأحمد (9619) باختلاف يسير، وابن خزيمة (938) واللفظ له.

المفترض بمجرَّد أن ينزغ الشيطان تُسكتينه بالاستعاذة، الشيطان يحفظ الموقف حفظًا، تكونين نائمة يوقظك من نومك يذكِّرك بالأحداث والكلام كله، فإنه لا إغاظة للشيطان بقدر ما تدعين لنفسك وتدعين لمن أثارك، فيجدك تطيعين الله بسبب وسواسه فيتركك، امكري به إذا مكر بك، التحريش بين المؤمنين أهم قاعدة عند الشيطان، هو يعلم أنهم مؤمنين فيحرش بينهم عندما يجدك ستُسببين بفعلك هذا زيادة الاجتماع يخنس العدو؛ لذلك أنتِ لا تستفيدين من التفكير والتذكير لأنها كلها آلام ستصبح لك، لكن أنت أول ما يعيد عليك فقط ادعي لهم ولنفسك فيخنس العدو بسبب أنك فعلت ضد مقصده!

وهكذا في كل شأن، بذلك أول وسوستك ستطيعين الله هو يهرب لأنه هو يريد قلة طاعتك لا زيادة طاعتك، فإذا عاديتِه بذكر الله وزيادة الطاعة خنس.

الأمر الثاني: في الأمور التي تجعل العاقل يخلص لله، ويحدِّث نفسه بالإخلاص ويمنعها أن تلتفت لغير الله، وبمجرَّد أن تقول له نفسه: انظر كيف يمدحونك؟ يرجع نفسه لنفسه ويقول لها: لا تنتظري غير ثناء الله، وثناء هؤلاء لن يفيدك في شيء يوم القيامة، ويوم القيامة هؤلاء سيصبحون أعدائي، والله-عزَّ وجلَّ-سيُخرج عملي وأنا أراه بنفسي وسأقلِّبه بنفسي وأرى العمل وعيوبه، كما في سورة يونس: {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ}[1]، ماذا يعني؟ تصوَّر أن هذا عملك تمسكه أمام عينيك (مثلًا الصيام) تراه فتجده مخرَّق من هنا ومن هنا، بسبب التفات قلبك إلى هذا وذاك، (تَبْلُو) أي: تختبر ما فعلت، فهي تشهد على نفسها أنه ناقص ومليء بالخروق، فأنت مباشرة انتبه لقلبك أول ما يلتفت لأحد حدِّثه ويحدثك أن هؤلاء لن ينفعوك وستأتي يوم تعرض الأعمال سيظهر خرق التفاتك لغير الله بهذا المقدار، وسيتركك الله وسيرمي هذا العمل عليك. فحدِّث نفسك وخوِّفها، فالإخلاص ليس مجرد كلمة تقولها بل جهاد، قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}[2]، هذه الآية أتت في ختام سورة العنكبوت التي بدأت بـ {الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[3]، ستُفتن وتُختبر وتأتيك الأشياء القواطع، وهذا سيُعجب بعملك وهذا يُشعرك أنه لا يوجد في الدنيا مثلك، وهذا وهذا...وأنت تجاهد وتجاهد وتجاهد لتخرج خالصًا، ولا تنسوا الصورة (كأن صوف في داخله شوك وتريدين أن تخرجي هذا الشوك خالصًا من دون الصوف فتصوري كيف تحتاجين أن تجاهدي حتى تخرجي هذا الصوف).؟

2- نذكر أنفسنا أن النافع الضار هو رب العزّة والجلال، فكيف نقصد بأعمالنا غيره طلبًا للنفع؟

بمعنى ضعِّفي حجم الناس ضَئِّلي حجمهم لأنهم عندما يكبرون في نظرك وتصبح لهم قيمة، يلتفت لهم القلب، لكن عندما تُضئِّلين حجمهم وتجعلين ليس لهم قيمة؛ فلا يلتفت القلب إلَّا لرب العالمين.

3- أن الأجر والثواب على مقدار النيَّة والإخلاص، فمضاعفة الأجور في الأعمال على قدر كونك لا تريد إلَّا الله؛ ولذلك المرأة التي سقت كلبًا كانت في الصحراء، سقت كلبًا-وليس إنسانًا سيئني عليها أو سيغضب عليها! بل حيوان وليس أي حيوان

(1) [سورة يونس: 30]
(2) [سورة العنكبوت: 69]
(3) [سورة العنكبوت: 1-2]

بل حيوان ليست له قيمة عند الناس، ومع ذلك أرادت بهذا العمل وجه الله، وهي كانت كما تعلمون في القصة أنها بغيّ-أي عندها ذنوب عظيمة-لكن لحظة الإخلاص ذهبت بالذنوب ومحتها.

فلذلك العمل الواحد يكون بسيط وضئيل لو قُدِّر بأعمال الغير، واحد بنى مسجدًا وواحد...وأنتِ كل الذي عملتِه أنكِ أزحتِ عن المسلمين منديل ورق لكن لم يركِ أحد، وأنت تعلمين أنَّ المسجد هناك من ينظِّفه لكن لا أحد يراكِ وأنتِ تقولين: انظر لي يا رب وأنا أحتسب عليك هذا العمل، أني عندما ألقاك أكون مثل هذاك الرجل الذي أزاح غصن شوك من طريق المسلمين فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة[1]، حديثك ومناجاتك وكلامك مع نفسك وتأديبها، وكلامك مع الله-عزَّ وجلَّ-وأنتِ تعرفينه، المشكلة إذا لم نكن نعرف الله فلن نجد سبيل للكلام! أنتِ عندما تحملين الأذى عن الطريق وأنتِ تعتقدين أن الله غفور شكور يغفر التقصير ويشكر على العمل القليل، يضاعفهُ حسنات حتى تبلغ الجبال، كلَّما انزاح من قلبكِ الجهل عن الله كلَّما استطعتِ أن تكلِّمي الله، وتناجي الله، وتسألي الله، وتقتربي من رضاه، ويصبح هو الذي يهمكِ، ويكون كل تفكيركِ: أنا ما ميزاني عند الله؟ مَن أكون عند الله؟ لأن العباد لهم موازين عند الله-عزَّ وجلَّ-.

وزنك عند الله على قدر طلبك رضى الله

ونحن نعلم أننا إذا ذكرْنا الله-عزَّ وجلَّ-ذَكَرَنا، إذا ذكرناه في نفوسنا ذكَرَنا في نفسه-سبحانه وتعالى-، وإذا ذكرناه في ملأ ذكَرَنا في ملأ خير مِنه[2]، لكن الشرط أنك لا تريد إلَّا إياه، ما يلتفت قلبك ولا عينك ولا أذنك لمدح ولا ثناء ولا نظرة اعجاب من أي أحد، وإن حصل وتعرَّضت لذلك-ولابد أن تتعرض-تهذِّب نفسك وتكلِّمها أن هؤلاء كلهم لا يساوون شيئًا، ضئِّلهم واجعلهم لا شيء، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[3].

إذًا هذا ثالث أمر وهو أن مضاعفة الأجور تكون على حسب العمل.

الأمر الرابع: أننا نؤدِّب أنفسنا ونفهمها أننا لو عملنا عملًا والتفتت قلوبنا لغير الله فلنعلم أن هذا سينقلب علينا!!

4- الإخلاص مهم؛ لأن من التمس رضى الله رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس سخط الله عليه وأسخط الناس[4]، أنت الآن تبدأ العمل لله وبعد ذلك يلتفت قلبك للناس ثم بعد قليل يقول الناس: هذا يرينا أنه يعبد الله. عليك أن تعرف أن هذا سينقلب عليك!

(1) أخرجه البخاري (652) واللفظ له، ومسلم (1914) ونص الحديث ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخذه فشكر الله له فغفر له)

(2) أخرجه البخاري (7405)، ومسلم (2675) باختلاف يسير. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم.

(3) [سورة فاطر: 15]

(4) رواه الترمذي قال كتب معاوية إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن اكتبي إلي كتابا توصيني فيه ولا تكثري علي فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس والسلام عليك

أنت الآن تبدأ العمل لله ثم تلتفت للناس فتسخط قلوب الناس على المرائي، فهذا مما تهذِّب به نفسك، تقول لنفسك: أنت تلتفت لهؤلاء؟ هم أصلًا لا ينفعونك ولا يضرونك، ويوم القيامة يكونون ضدك، والدنيا هنا هؤلاء سينقلبون عليك ويصبحون ذامين عليك ليسوا مادحين لك؛ لأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء[1]، فيقلب قلوب هؤلاء عليك، فعندما تترك الإخلاص يأتيك عكس مرادك بالضبط.

من خلال الكلام تبين لنا أيضًا ما هو الإخلاص وكيف معنى ذلك أننا نجاهد حتى نرُد أنفسنا ولا نجعل في قلوبنا إلَّا إرادة الله ورضاه والاستعداد للِقاه، فالإخلاص أن يكون القلب مشغولًا بالله ورضاه والاستعداد للِقاه.

إن شاء الله يكون الأمر واضح ونكمل ما تبقَّى من نقاش في اللقاء القادم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(1) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء).

اللقاء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

اللقاء 3 ألقي يوم الخميس 1435/8/14

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، نحمد الله-عزَّ وجلَّ-حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونختم بهذا اليوم-إن شاء الله-لقاءنا الذي استمر لمدة ثلاثة أيام، وناقشنا موضوع من أهم المواضيع وهو موضوع: [طهارة الوجدان استعدادًا لرمضان] وهذا الموضوع يبقى الإنسان يهتم به سواءً كان يستعد لرمضان أو في طوال حياته؛ لأن طهارة الوجدان ستكون:

- ✓ استعدادًا لطاعة الله.
- ✓ واستعدادًا لِلقاء الله.

فنبقى طوال الحياة نطهر وجداننا مستعدين لِلقاء الله-عزَّ وجلَّ-.

كنَّا قد اتَّفقنا على مسألة مهمة ألا وهي: أن طهارة الوجدان تكون بالإخلاص.

لماذا نهتم بقلوبنا؟

ذكرنا أسباب كثيرة وكيف أن هذا القلب عبارة عن المَلك والأعضاء بالنسبة له كالجنود، واتَّفقنا على حديث النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-الذي نكرِّره جميعًا ونعرفه: ((أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ))[1]

ثم أتى بعد ذلك: كيف يصلح هذا القلب؟

يصلح بالإخلاص، ولن يكون قلبك خالصًا لله إلَّا عندما تُخرج كل أحد غير الله من قلبك وتبقي في قلبك الله وحده، وهذا هو الإخلاص، أن تكون خالصًا، (خالص) بمعنى نقي؛ ليس فيك شوائب وقلبك ليس فيه أغراض ومقاصد غير الله-عزَّ وجلَّ-حبًا وتعظيمًا وقصدًا بعملك؛ فلذلك عندما نسأل:

ما الذي يجعل عملك مقبولًا؟

1. أن يكون قلبك خالصًا لله.

(1) أخرجه البخاري (52)، ومسلم (1599) واللفظ له.

2.وعملك على سنَّة النبيّ-صلَّى الله عليه وسلَّم-.

وإذا أتينا بشرط واحد من هذان الشرطان سيلزم الثاني مباشرةً.

فلو قلنا: شرط قبول العمل أن يكون قلبك خالصًا لله، ما تريد إلَّا الله ولا تريد إلَّا أن يرضى عنك الله، فيقال لك: لن يرضى عنك الله إلَّا إذا تابعت سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-في كل عمل، ومن ثمَّ الإخلاص سيأتي بالمتابعة.

وإذا أخذنا شرط المتابعة وقلنا: لن يصلح عملك إلَّا إذا تابعت النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-، سيأتي أن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-عندما كان يطيع الله ما كان يطيعه إلَّا وهو لا يريد إلَّا الله-عزَّ وجلَّ-.

ولذلك عندما نتفكَّر في موقف أُمّنا عائشة في موقف الإفك لما نزل على نبي الله-صلَّى الله عليه وسلَّم-ما يطهِّرها-وهي الطاهرة هي وأبيها-نسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يحشرنا مع نبينا-صلَّى الله عليه وسلَّم-ومع الصحابة ومع أمهاتنا أمهات المؤمنين، لما نزل على نبي الله-صلى الله عليه وسلَّم-ما يطهرها انظروا لردّة فعلها!! لما قامت تشكر ما شكرت إلَّا الله، حتى أنها تركت شكر النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-أو الاتجاه له بقلبها ولا حتى ببدنها وأول ما قامت، قامت إلى ربها، هذا يدل على أن الإنسان عندما يقوى إخلاصه سيكون أول أمر يصدر منه في حال فَرِحه وحُزنه في مواقفه وحياته كلها سيكون مُتَّجه فيه لله-عزَّ وجلَّ-وهذا الإخلاص على قدر مناقشته والزيادة في الكلام فيه يبقى أمر يحتاج زيادة في المناقشات دائمًا ليظهر ويصبح جليًا.

على كل حال، أمس بدأنا في الكلام عن أهم الأسباب التي تجعل العقلاء يخلصون نيَّاتهم لله-عزَّ وجلَّ-، واتَّفقنا أن الإخلاص هو: عمل القلب المعتمد على اعتقاد القلب، فالإخلاص عبارة عن شخص يعمل على قلبه ليخلِّص نفسه، وهذا العمل معتمد على اعتقاد القلب.

لو اعتقدت مجموعة اعتقادات، ورسخت هذه الاعتقادات في قلبك، فلن تشعر أن الاجتهاد في الإخلاص أمر يتعبك بل سيصبح الإخلاص قصدك وغايتك.

اتَّفقنا أمس أن الإخلاص عبارة عن مجهود يقوم به الإنسان فيسأل نفسه دائمًا:

- ✓ مَن تريد؟
- ✓ ماذا تريد؟
- ✓ ما الذي يهمك؟
- ✓ ما الذي يشغل بالك؟
- ✓ ما هو المقصد؟
- ✓ ممن تخاف؟

✓ مَن ترجو؟

هذه الأسئلة كلها عبارة عن حوار يدور في قلبك. ويمكن مع الكسل أن تسير في الطريق ولا تسأل نفسك هذه الأسئلة، نترك أنفسنا وفي وسطها أخلاط كثيرة وتكفينا مشاعر أننا نعمل، ما دمنا نعمل إذًا خير وبركة!!

لكن يجب ألَّا ننسى ما ذكرناه سابقًا من الأدلة التي تدل على اشتراك المؤمن مع المنافق في الأعمال وانفصالهم في مقاصدهم، الانفصال والاختلاف دائمًا يكونون في المقاصد.

إذًا ما هي الأسباب (أو اعتقادات القلب) التي تجعل العقلاء يخلصون؟

➢ أولها أن الإخلاص شرط لقبول العمل

فلا يتحقق لك الإخلاص بمجرد سماع الأخبار!

لا، هذه الأخبار التي سمعناها أمس ونكملها اليوم تجعل قلبك يبذل جهده في الإخلاص وتخليص نفسه، تقول: أنا سأجتهد في الإخلاص. وسنبذل جهودنا أن نراقب قلوبنا ونكلِّمها وتكلِّمنا ونبذل جهودنا أن نفهم ماذا نقصد؛ لأن التعب الذي نتعبه في الأعمال قيمته على قدر الإخلاص ولأنه لا يُقبل عمل إلَّا لو كان خالصًا، لأنه لو لم يكن خالصًا- أي وقع في الشرك الأصغر بأي نوع مثل الرياء-في عبادته وعمله له، لم يقبل الله تعالى عمله.

وثبت في الصحيح عن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-أنه قال: ((قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه))[1] وفي لفظ: ((فأنا منه بريء)) وهو كله للذي أشرك.

إذًا كل هذا الجهد لا شيء إذا لم تلاحظ ماذا تريد بقلبك.

هذا النص يجعلني أعتني بحركة القلب وحينما أدخل على الأعمال الصالحة أقول لنفسي: العمل الصالح ظاهر وحقيقته باطنة، العمل الصالح الذي تريد أن تتقرب إلى الله به ظاهر تتابع فيه النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-لكن أهم شيء أن يكون له باطن تقصد به الله، هذا الدليل يكفينا في الفهم ودليله أكثر بيانًا.

➢ وثانيها: أنَّ النافع الضار هو رب العزَّة والجلال، فكيف نقصد بأعمالنا غيره طلبًا للنفع

لماذا تفكِّر في غير الله؟ بماذا سينفعك غير الله؟ ولو ارتفعت في عينه ولو أُعجب بك ولو حصل لك ما حصل من هذه الرغبات في ثناء الناس! ثم ماذا؟ هي كلها كلمتين يخرجها من لسانه ولا تساوي شيئًا، وسنرى في النقطة الثالثة كيف

(1) أخرجه مسلم (2985)، وابن ماجه (4202)، وأحمد (9619) باختلاف يسير، وابن خزيمة (938) واللفظ له.

ستتحول!! ماذا يساوي ثناء الله العظيم مقابل ثناء الناس!! ولو اجتمعوا على الثناء لك؛ ولذلك ما هو وصف (الأبرار)؟ يقولون بلسان حالهم: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}[1]

النتيجة: (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ) لأنهم لا يفكرون في الناس إنما نريد وجه الله، نريد ثناء الله، فالله هو النافع الضار، هو رب العزّة والجلال، فكيف نقصد بأعمالنا غيره طلبًا للنفع؟ لن ينفعوك حتى لو النفع البسيط الذي هو نظرة الإعجاب بك، حتى هذه؟ نعم.

فلنركز جيدًا على الذي يساعدنا أن نخلص وهو محادثة النفس، يقول لنفسه: الناس لا ينفعوك بشيء إلَّا أن يشاء الله. وإذا التفتت نفسك يمينًا أو يسارًا ردّها، فأنت لن تولد من بطن أمك مخلصًا! ولا بتعلُّمك الإيمان والقرآن ستكون تام الإخلاص!

النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-قال لصحابته ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر))[2] معناها أن مثل هذا يخيف!

والشرك الأصغر عبارة عن عبد قام بعمل يحبه الله فالتفت قلبه لغير الله، وفي لحظة يلتفت القلب، أليس اسمه قلب يتقلَّب؟

من اسمه يتقلَّب انتبه ينقلب عليك، انتبه يلتفت لغير الله.

إذًا من الأسباب التي تجعلنا نهتم بالإخلاص ونكلِّم أنفسنا ونناقشها ونراقب قلوبنا، اتفقنا البارحة على مراحل من ذلك، فالمخلص شخص عينه على قلبه مركز لا علاقة له بالناس، والمخلص هذا شخص يحدث نفسه دائمًا بعظمة الله -سبحانه وتعالى-وبالعمل لأجله ولأجل لقائه، دائمًا يحدث نفسه بذلك، ويحدث نفسه بشيء آخر: أن كل الناس فقراء ضعفاء، لا يملكون، فالإخلاص: مراقبة القلب، لابد أن تراقب قلبك قبل العمل وبعد العمل وأثنائه، ثم إذا ذهبت نفسك يمينًا أو يسارًا، أشهِر عليها سيف لسانك، والذي تعتقده كلِّم نفسك به، أدِّب نفسك به تأديبًا، وردَّها عمّا تفكر فيه؛ لأن هذه الخواطر عندما تستقر يصبح الإنسان بعد ذلك لا يراعي إلَّا نظر الناس وينسى رب الناس! وهذا أمر مشترك والشيطان لا يتركنا!

ولو كان أمرًا غير مخيفًا ما كان خافه النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-على خير جيل، على صحابته الذين ربَّاهم بنفسه-صلَّى الله عليه وسلَّم-.

إذًا ما هي الاعتقادات التي تجعلنا نهتم بحركة قلوبنا ونجاهد لكي نخلص؟

---

(1) [سورة الإنسان: 11:9]

(2) أخرجه أحمد (23630) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (6831)، والبغوي في ((شرح السنة)) (4135)

➢ الاعتقاد الأول: أن عملي هذا الذي تعبت فيه قيمته على قدر الإخلاص فالله يقبل العمل الخالص، وماذا عن العمل غير الخالص؟ ذكّري نفسك بالدليل: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) وفي لفظ: ((فأنا منه بريء))

أي أن عمله هذا لا يساوي شيء وذهب تعبه هباءً.

➢ الاعتقاد الثاني: هؤلاء الذين يريد قلبك أن يتجه لهم ما وصفهم؟ لا ينفعوك ولا يضروك!!

➢ الاعتقاد الثالث: أن الأجر والثواب يضاعف على قدر ما في قلبك من الإخلاص، وإنما لكل امرئ ما نوى.

أي أنك تعمل عملًا بسيطًا ويضاعف على قدر ما في قلبك من إخلاص.

مرَّ معنا حديث البغيّ التي سقت كلبًا، والرجل الذي أزاح غصن شوك من طريق المسلمين، وكان الذي سبب لهم المغفرة هو مقدار إخلاصهم.

الله-سبحانه وتعالى-يعامل عباده باسميّ: الغفور الشكور، يغفر لهم نقائص أعمالهم ويشكرها لهم، لكن لمن؟ قال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ} أي يتابعونه {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} أنظري ماذا يريدون؟ {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} أي هؤلاء ما صفتهم؟ الإخلاص، لدرجة سُمي الإخلاص كأنهم أتوا بقلوبهم وباعوها لله فتاجروا بقلوبهم مع الله، هذه تجارة لن تبور.

قال الله في حقهم: {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ} يعطيهم أجورهم كاملة مهما كان فيها نقص، ولا يعطيهم أجورهم كاملة فقط بل {وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}[1] هذه الآية في أول فاطر، وفي آخر السياق يصف الله أهل الجنة فيقول على لسانهم عندما يدخلون الجنة:

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} ما الحزن؟ كل ما نعيشه من آلام ونحن نجاهد ثم يقولون: {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ} أعمال قليلة لكنهم تاجروا فيها مع الله؛ فكانت النتيجة أن ضاعف الله لهم الأعمال وكان أول كلامهم: الحمد لله الذي أذهب عنَّا الحزن.

الحزن هذا هو: كل الآلام التي يعيشها الإنسان والصراعات في قلبه بين الدنيا وأهلها وبين الله-عزَّ وجلَّ-والقصد له.

عندما يذهب عنهم الحزن يعترفون أن هذه الحالة التي هم فيها ليست من تحصيل أعمالهم؛ أولًا لأن الله عاملهم أنه غفور شكور {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} أي لأنه عاملنا بمغفرته وشكره فضاعف لنا أعمالنا القليلة. بسبب ماذا؟ لا تنسَ الشرط الذي جاء في أول السياق {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} فأنت واحد بائع نفسك لله-عزَّ وجلَّ-ولا تريد شريكًا في هذه التجارة ولا تريد أن تبيع نفسك لله وللناس! وإنما ترجو هذه التجارة التي لن تبور.

(1) [سورة فاطر: 30]

معنى ذلك أن العاقل يذكِّر نفسه أن الله سيضاعف له الحسنات وسيشكره على عمله مهما كان قليلًا. لكن متى؟ لو كان خالصًا! ولو كان غير خالص فسيرد عليك. من المؤكد أن أمثال هذه المعلومات تجعلنا في صراع دائم مع نفوسنا توقظنا تجاه نفوسنا. تاهت قلوبنا، اللهم لا تجعلنا تائهين!

نحن الآن عندما ننظر إلى حالنا وقد ذكرنا من أول يوم أننا عندما ننظر في حال المجتمع-إلا مَن رحم ربي-لا تقل أبدًا: إن هؤلاء في رمضان زادوا إيمانًا!! لأنهم يكونون في آخر ليلة في شعبان خير منهم في أول ليلةٍ في شوال!! بدليل نومهم عن الصلاة!! طبعًا أنا أتكلم عمَّن تعرفون أي العامة من الناس، لكن الحمد لله في كل أمر هناك استثناء ولا زال الخير في أمة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-نسأل الله أن ينشره عليهم جميعًا، لكن نحن نريد أن نعرف العلَّة، لماذا يعمل العبد العمل الصالح-في الظاهر-ولا توجد النتائج المرجوَّه؟ بسبب نقص عمل القلب.

هناك تركيز على عمل الظاهر ولا يوجد تركيز على عمل الباطن وهو الإخلاص، حتى عندما نقول: اللهم ارزقنا الإخلاص. لا أكون مدركة لمعنى الإخلاص! الإخلاص هو المعركة التي تدخلها من أجل أن تدفع عن قلبك الغفلة؛ لأن هناك غفلة، هناك أعمال نعملها على العادة، صوموا غدًا نصوم ونبقى طوال النهار لا نفكر أن الله ينظر إلينا وأننا نريد بهذا الامتناع وجهه، ما نفكر في تفاصيل حالنا، نغفل! بل نبذل جهودنا أن ننسى أننا صائمون! بل ذكِّر نفسك أنك حابس نفسك عن المحاب من أجل الله، واجتهد أن يكون هذا حالك في أي موقف آخر غير رمضان لأن الإخلاص في كل الحياة ليس في رمضان فقط.

أنت قد وُهبت لسانًا وإذا أحد قال لك كلمة تستطيع أن تقول له عشر كلمات. بلاء عليك! ثم تريد أن تتقرب إلى الله بحبس لسانك، فماذا تفعل الآن؟ تُذكّر نفسك دائمًا أن لسانك سيأكلك وسيأكل حسناتك، وتتقرب إلى الله فتقول: يا رب أنا أصمت من أجلك، وإلا فأنا أستطيع الرد ولكني حابس نفسي من أجلك، فهذا الكلام فيه عمل وفيه إخلاص!

- المقصد أن الإخلاص هو تحديد لمقصدك من العمل، وهذا التحديد لابد أن يكون ظاهرًا في كل عمل.

مثلًا نأتي نتوضأ، في الوضوء تسقط الذنوب مع كل عضو أو كل قطرة، لكن متى؟ إذا جمعت نفسك على أنك تعبد الله، تتوضأ ائتمارًا بأمر الله، تتوضأ ائتمارًا لأمر الله تتوضأ متابعةً لسنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-تتوضأ وأنت مقصدك التفكير في طهارة هذه اليد، في طهارة هذه العين، في طهارة هذه القدم، تُفكر فيها، وعندما تفكر يكون مقصدك بالغسيل أن تغسل السيئات معها، فهذا شخص تضاعف له الدرجات؛ لأن قلبه مشغول بالحسنات ومشغول قلبه بالبعد عن السيئات ويشعر أن سيئاته كجبل سيقع عليه فيهرب من هنا لأعمال حتى تكفر سيئاته ويهرب من هنا إلى هنا، وكل تفكيره وهمومه ← عندما ألقاك اجعل هذه سبب لكفارة ذنوبي.

ثم عندما ينضج الإنسان ويكون قد فعل أفعالًا في شبابه، يبقى مستحيًا يستغفر ويستغفر ويقوم بحسنات ويستحي أن يلقى الله فيقول له الله: فعلت هذا! فهذا عبد مهموم بلقاء الله.

فالمُخلص هذا خلَّص نفسه من كل الهموم وجعل همه واحد: الله، ورضاه، ولقاه.

فيفكِّر طوال الوقت: عندما ألقى الله ماذا أقول؟ عندما ألقى الله بماذا أعتذر؟ أعِد لكل سؤال جواب، يا رب أنا بريء من هؤلاء، أنا نصحت هؤلاء، فيبقى الإنسان مهمومًا بما سيلقاه.

لكن الغافل، صحيح أن قلبه لم يلتفت لغير الله، لم يقع اهتمامه بأحد، لكن أيضًا لم يهتم بالله ولا بلقائه.

إذًا أزمة الإخلاص تأتي من جهتين:

- تأتي عندما نقصد غير الله.
- وتأتي عندما نغفل عن لقاء الله.

ومن هنا تأتي الأزمة، فيجب أن أسأل نفسي دائمًا: ماذا أريد من هذا العمل؟ وهذه المعلومات التي قلنا إن العقلاء لو عرفوها لاجتهدوا أن يخلصوا لأن ذاك الرجل أزاح غصن شوك عن طريق المسلمين فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة.

أنت لا تنظري للعمل نفسه، انظري أن قلب العبد عندما يكون صادقًا في قصده لله يصبح العمل القليل له أجر عظيم، لأن الله غفور شكور إلى درجة أنه عندما تصدق التوبة مثل الثلاثة الذين خُلِّفوا[1] مر الكلام عنهم ،كانت عندهم ثلاثة مشاعر:

1. ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.
2. ضاقت عليهم أنفسهم.
3. ظنوا أن لا ملجأ لهم من الله إلا إليه.

هؤلاء انقطعت مشاعرهم عن كل شيء؛ فأبقى الله ذكرهم من ذلك الزمان إلى هذا الزمان ومازال ذكرهم يُتلى في المساجد وفي البيوت! رفع الله ذكرهم لتوبة قاموا بها لكنها كانت شديدة الإخلاص.

إذًا العاقل يرى أجر الإخلاص قبل أن يرى أجر نفس العمل، فيرى أن العمل القليل يمكن أن يصبح ضخمًا بسبب:

- ✓ بسبب قصدك لله.
- ✓ والتجارة مع الله.

(1) قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)} سورة التوبة

➢ ورابعها: أنّ مَنِ الْتَمَسَ رضا الله، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس،

ومن الْتَمَسَ رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس.

وهذا السبب الرابع يساعد السبب الثاني للإخلاص الذي ذكرناه أن الناس ليسوا نافعين ولا ضارين والله-عزَّ وجلَّ-وحده هو النافع الضار فلا تلتفت لهؤلاء الذين لا ينفعوك وكذلك قل لنفسك معلومة ثانية مهمة: هؤلاء الناس عندما تلتفت إليهم وتهتم برأيهم فيك؛ تتحوَّل قلوبهم عليك {جَزَاءً وِفَاقًا (26)}[1] عُومِلت بضد مقصدك؛ لماذا؟ لأنك التمست رضا الناس بعمل المفترض ألَّا يكون إلَّا لله!! ليس مطلوب منَّا أن نسخط الناس لا! المطلوب منا في عمل المفترض أن يكون خالصًا لله-أي ألتمس به رضى الله-ألَّا يلتفت قلبي يمنةً ويسره في التماس رضى الناس!

فعندما تقول: حاولت أن أتلمح نظرات الناس لي، أو في هذا العمل حاولت أن أسمع كلمة ثناء، فافهم أن هذه المحاولات والملاحظات الحاصلة من قلبك ستقلبهم عليك؛ لأنك التمست رضا الناس، فعندما تلتمس رضا الناس بعمل يجب أن يكون خالصًا لوجه الله ستنقلب القضية عليك ويسخط الناس، وغدًا مادحك سيصبح ذامًا لك.

ولذلك من فقه السلف أنهم كانوا يقولون: "من عرف الناس استراح، فلا يطرب لمدحهم ولا يجزع من ذمهم، فإنهم سريعو الرضا سريعوا السخط، والهوى يحركهم"

فالأفضل أن تريح نفسك فالذي يعرف حال الناس يستريح، لا يبحث عنهم ولا يبحث عن آرائهم؛ لأنهم أصلًا سريعو الرضا سريعو السخط، والذي يجعلهم يسخطون ويرضون هو الهوى، والله-عزَّ وجلَّ-يقلبهم عليك.

فلذلك هذه المعلومات تجعلك تقولين لنفسك: انتبهي لا تلتفتي لهم مهما كان حالهم، هذا العمل يجب أن يكون مقصدك فيه وجه الله.

➢ وخامسها: أن الإخلاص يمسح وساوس القلوب، ويعجز الشيطان أن يصل معه إلى القلب

وهذه من أخطر المعلومات التي تتركني أطلب الله ولا أطلب غيره، وهي أن الشيطان يتمكن من القلب الخالي من الإخلاص ماذا يقول الله عن الشيطان أنه قال؟ {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82)} ثم أتى الاستثناء، مَن الذين لا يقدر عليهم؟ قال:

(1) [سورة النبأ: 26]

{إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[1] معنى ذلك كيف تترك للشيطان مجال للوساوس؟ عندما تعمل أعمال العبادة ويلتفت قلبك لغير الله؛ حينها يتمكّن الشيطان من القلب الخالي من الإخلاص، لكن كلَّما أشهرت سيفك على قلبك ومنعته أن يلتفت يمنة أو يسرة بالمراقبة وبالتأديب وبالتعلم عن الله-عزَّ وجلَّ-وعن عظمته وبمعرفة حال الناس وكيف أنهم ينقبلون، وتكلم نفسك؛ ما يستطيع الشيطان أن يتمكن منك؛ لأنه لا يتمكن من عباد جاهدوا من أجل الإخلاص! فيصبح الإخلاص دُربة عندهم، يدربون أنفسهم، يستحون أن تلتفت قلوبهم لغير الله؛ فلا يتمكن منهم الشيطان.

فالشيطان أقسم بإغواء الناس أجمعين، ثم هو استثنى المخلَصين؛ لأنه يعرف أنه لا يتمكن من قلب إنسان طوال الوقت يراقب قلبه ولا يراقب الآخرين، الجهد والقدرة التي ملَّكنا الله إياها-أننا نركز-المفترض أن تكون كل القدرة والجهد على قلوبنا حتى لا تتحرك يمنةً ولا يسرة.

➢ وسادسها: أن المخلصين يبعدهم الله عن المعاصي، ويعصمهم من الذنوب

أي عندما تخلص لله في بعض أعمالك، الزمن الذي بعده يعصمك الله من الذنوب.

انظروا الشاهد، أهم شيء الدليل، ما هو الدليل؟ في قصة يوسف، الله-عزَّ وجلَّ-أخبر أن يوسف-عليه السلام-كان في حال قريب من أن يقع في الفحشاء لكن الله-عزَّ وجلَّ-عصمه وأخبرنا الله-عزَّ وجلَّ-بالسبب، قال تعالى:

{كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}[2] فكونه مخلص وعايش مواقف كثيرة وجاهد نفسه، وجاهد نفسه، عندما يأتيه الشيء الكبير العظيم الذي تميل نفسه إليه، فالله من منّه وكرمه يصرفه عنه!

هو جاهد نفسه أنه يريد رضاه فالله-عزَّ وجلَّ-حين يأتيه بلاء كبير يصرفه عنه؛ بسبب أن له تاريخ طويل في مجاهدة النفس، تاريخ طويل في منع النفس أن تلتفت لغير الله.

معنى ذلك أن العبد المؤمن الذي يؤمن بالله-عزَّ وجلَّ-ما حاله؟

أنه دائمًا يجاهد نفسه، أثر أن يجاهد نفسه أن تمر عليه عواصف شديدة لكن يُحفظ.

على قاعدة: تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة.

(1) [سورة ص: ٨٢ – ٨٣].
(2) [سورة يوسف: ٢٤]

هذه القاعدة صحيحة، هو مخلص وباذل جهده في ذلك ثم تأتي الفواحش عليه فينصرف عنها، والشيطان يكرر ويكرر ويأتي ما يثيره للفحشاء والمنكر لكن الله-عزَّ وجلَّ-يصرف عنه الأمور؛ السبب: أن له تاريخ في المجاهدة، إذًا أنت قدِّم بين يديّ الله مجاهدة للقلب على طلب رضا الله؛ لأن هذا هو الإخلاص، إنك تجتهد في طلب رضا الله، النتيجة: أن يصرف الله-عزَّ وجلَّ-عنك الفحشاء.

➢ وسابعها: أن الإخلاص سبب لمغفرة الذنوب

وفي الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: ((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا)) بمعنى لا صغير ولا كبير، والصغير هو الذي ضد الإخلاص، ماذا يفعل الله -عزَّ وجلَّ-؟ ((لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))[1]

فمهما حصل من ذنوب يقع فيها الإنسان، وربما كان في تاريخه الذي يسبق الإخلاص مِن زلات قدم أو ابتلاءات، أو طباع مهما كان حاله إن كان ممن أشهر سيفه على قلبه وبذل جهده أن يرد نفسه في إرادة وجه الله دائمًا، سيلقاه الله بملء الأرض مغفرة، والحمد لله رب العالمين على نعمائه-سبحانه وتعالى-.

فهذه الاعتقادات السبعة تسبب لنا زيادة مجاهدة أنفسنا؛ لأن الإخلاص ليس كلمة، بل الإخلاص عين ترقب القلب وقت القيام بالعمل، ونفس تناقش وتناقش حتى ترد القلب إلى إرادة وجه الله، أي مراقبة للقلب مع مناقشة للقلب، فلا تتركه، بل تفحصه، فتسأل نفسك: ماذا تريد؟ لأنه ماذا يحصل للإنسان في الإرادات المخالفة؟

هناك قوم يكذبون على أنفسهم، أترون هذا الذي قرأ القرآن ثم لقي الرحمن يوم القيامة، وكان أول مَن تسعَّر به النار[2] ماذا فعل؟! مع أنه عمل عملًا صالحًا لكنه لم يكن مخلصًا، وهو لم يفهم أنه ليس مخلص!

هذا رجل أو امرأة بدؤوا حفظ القرآن، وأول أمرهم كانت غايتهم وجه الله، فدخلت عليهم الدنيا من أقطارها ثم التفتوا (نظروا) لمكانتهم عند الناس، والتفتوا لأمور أخرى (مال، جاه، مكانة، وظيفة) المهم أنهم حادوا بمقاصدهم لغير الله فسمعوا

(1) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ، وحسَّنه الألباني.

(2) والحديث رواه مسلم ونصه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار))

صوت في قلوبهم يقول لهم: أنتم لا تريدون وجه الله لا تقصدون وجه الله، فيردوا على هذا الصوت ويقولون: لا، نحن مخلصون ونحب ربنا، فيخفض الصوت! ثم يأتي الموقف الآخر: يغضب لأن فلان أفضل منه أو وجدوا معلمين كثير فبدل من أن يفرح لانتشار الدين، يغضب؛ لأنه لم يصبح بمفرده على الساحة!! وعندما يغضب لا يسأل نفسه: لماذا أنا غضبت! وحتى لو سأل نفسه يُخرج مائة عذر، يقول: لأجل أن هؤلاء ليسوا كفؤ وهؤلاء...يكذب! وهناك صوت في داخله يقول له: هذه علامة على أنك لا تريد وجه الله، فهناك صوت في داخله لازال حيًا لكنه يسكِّته إلى أن يصل لحال ما يسمع صوتًا آخرًا إلَّا صوت من يقول له: أنت على خير، أنت على صلاح، أنت مخلص. فيسكت الصوت الثاني، لا مراقبة ولا مناقشة ولا ملاحظة ولا صدق في المواجهة.

من أجل ذلك يمكن أن نكذب على أنفسنا ونقول: نحن مخلصون ونسأل الله أن يرزقنا الإخلاص! ونحن لم نفتش في قلوبنا ماذا نريد؟! الإخلاص ليست هذه صورته! الشخص لابد أن يراجع نفسه في كل المواقف؛ لذلك حتى لو كذبت النفس لا يتركها الله، قال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[1] أي يحدث لك موقف يكشف لك حقيقتك، أنت لو كنت صادقًا ناظرًا مراقبًا لقلبك ماذا تفعل؟ ستقول: نعم، هذا مؤشر أن في داخلي مرض، فترد وتهذِّب نفسك، وتتعلم علمًا ترد به على قلبك، وتعمل أعمالًا لصلاح نفسك وترجو الله وتسأله أن يصلح لك قلبك، وتفهم حالك وحال قلبك، لا تمشِ في الحياة كشخص غاش لنفسه ينتظر الجنة ونعيم المتقين. لا، هذا غش! لذلك يأتي يوم القيامة يعرِّفه الله بنعمه ويسأله: ماذا صنعت فيها؟ فيقول: يا رب قرأت القرآن فيك، جاهدت فيك، أنفقت فيك. فيقول الله لكل واحد من هؤلاء: كذبت! عشت كاذبًا ولقيت الله كاذبًا، فتسعر بهم النار[2].

فالمسألة تحتاج إلى فحص دقيق ومراقبة، وليس وسواس من الشيطان، اترك الشيطان، الشيطان يأتي يقول لكِ: لا تعملي أنتِ مرائية، لا، ليس بهذه الطريقة، بل الفحص والمراقبة التي نطالبك بها هي التي تسبب زيادة الاجتهاد وزيادة المحاولات وكلَّما حاولت ووجدت نفسك ضعيفًا، تعيد على نفسك المراقبات وتعيد على نفسك المحادثة وتقرأ وتستغفر من التفات قلبك لغير الله، وتجرب وتعيد على نفسك الملاحظة والمراقبة والمحادثة وتقرأ وتتعلم لكي يُنتزع الباطل من قلبك وتدعو وتدعو.

إذًا الوسواس الذي يتصل بالإخلاص هو كلام من الشيطان يجعلك لا تفعل ولا تجاهد إنما تستسلم، أما المباحثات التي تحصل ويكون أثرها علينا أن نعمل ونجاهد ونراجع أنفسنا ونستغفر ونتوب وننكسر ونذِل وندعو الله أن يصلح قلوبنا فهذه مراقبة صحيحة وليس عملًا وسواسيًا.

---

(1) [سورة العنكبوت: 2]

(2) وأصل الحديث ما رواه مسلم في صحيحه (1905)، عن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيامَةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: قاتَلْتُ فِيكَ حتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ قاتَلْتَ لأنْ يُقالَ: جَرِيءٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ، وعَلَّمَهُ وقَرَأَ القُرْآنَ، فأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ، وعَلَّمْتُهُ وقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ))

إذًا ما ضابط المراجعة الوسواسية؟

أنها تحبطك عن العمل، وعندما يستلمك الوسواس من جهة الإخلاص يجعلك لا تعمل!

ولكن عندما تكون مراجعتك لنفسك ليست وسواسًا، تجعلك تعمل وتجاهد وتسأل نفسك وتراجعها وتقول: المخلص يفعل كذا والمخلص يفعل كذا، وتقرأ في سير الأوائل وتقرأ عن الله-عزَّ وجلَّ-وتطلب من الله أن يقبلك، وتسأله أن يطهِّر قلبك

وتفعل كل هذا الأفعال وأنت خائف، هذا حال المخلص، لا يترك نفسه ولا يترك العمل أبدًا طول العمل عينه ومراقبته على قلبه، ليس شخص لا يهمه إلا مظهر العمل بل أهم شيء قلبك فالنفس تذهب وتعود تتقلب أنت ماذا تفعل بها؟ تؤدبها، هذا دورنا هذا عملنا.

على كل حال كل المعلومات التي مضت سيكون في نهايتها أن أعرف ما معنى إخلاص الدين لله؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بَعَثَ الله بِهِ الرسُل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان".

إذًا الدين كلّه في تفاصيله سواءً كان في أعمال رمضان أو غيره يجب أن يكون فيه إخلاص أي يكون فيه مقصدًا، ومقصدًا صحيحًا وظاهرًا وتكون عنه غير غافل! لابد ألَّا تكون عنه غافلًا، لابد أن تكون متنبه أنك الآن تقوم تصلي فريضة الظهر ولك من الأجور كذا وكذا، وحالك عند الله كذا وكذا، تصوم نهار رمضان ولك من الأجور كذا وكذا، وحالك عند الله كذا وكذا، فأنت واحد تفكر أن هذه الأعمال ليست مجرد عادة تمر عليك إنما لك مقاصد وتفكر في لقاء الله-عزَّ وجلَّ-.

على كل حال، إخلاص الدين لله هو خُلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه؛ لأجل ذلك لابد أن نهتم به ونكرره ونعتني بإظهاره في قلوبنا.

ويتجلَّى الإخلاص في الصيام بوضوح؛ لأن الصيام ينطلق بوضوح من النيَّة، من المقصد.

يؤذِّن الفجر، تفرح باليوم وتستبشر، وتقصد الامتناع عن الطعام والشراب لوجه الله، يمكن أن تمتنع لأنك نائم أو شبعان أو تعبان. لماذا تمتنع؟ لابد أن يكون امتناعك ليس لأنك شبعان أو...أو... بل يكون امتناعك لأنك تريد وجه الله، والقربى لله، فتُشعر نفسك أن هذا الحبس إنما هو ائتمارًا بأمر الله، ثم حين يُمسك الإنسان عن المفطرات بنية التقرب لله، لابد أن تعرف أن هذا العمل نفسه لا يطَّلع عليه أحد إلا الله-عزَّ وجلَّ-.

أي: قد لا تأكلين أو تشربين مثلما يحصل كثيرًا في الدورة الشهرية عند النساء، عندها في أهل بيتها مَن تستحي أن تُظهر أمامه أنها مفطره فتبقى ممتنعة عن الطعام والشراب لكن نيتها ليست أن امتناعها قربة لله.

-حتى نُميّز-فالعبادة كلها في الصيام تدور حول مقصدك، فلا بد أن يكون شعورك بهذا المقصد طويل الأمد، لا أن تنام هروبًا من الشعور به!

تأتيك (قرصة الجوع) خصوصًا في أول أيام الصيام، خصوصًا لمن لم يكن معتادًا على الصيام، (قرصة الجوع) هذه احتسبها عند الله، أن هذا الألم الذي أشعر به وأقبله وأرضى به وأسعد به وأنا بهذا أتقرب إلى الله، لا كما يقول: الناس لبعضهم: لا تذكروني أني صائم فيأتيني الجوع! لا، أصلًا مشاعر الجوع بنفسها هذه قربة لله وأنت تمتنع امتثالًا قربةً إلى الله، فلا تُنسِ نفسك في نهار رمضان أنك تقوم بعبادة عظيمة، وأنت تسأل الله أن تكون هذه العبادة العظيمة سبب لمباعدة وجهك عن النار، فكّر في النار وفكّر في الأيام التي تصومها وأن كل يوم تصومه يباعدك عن النار، فهذا كله سيحرك في وجدانك أنك سعيد بالتوفيق للصيام، سعيد أن الله -عزَّ وجلَّ-مدّ في عمرك وصمت، ليس الفرح برمضان لأنه شهر تتغير فيه الحياة ونمطها، فالناس يكونون سعيدين بما يحصل حولهم من أحداث!! وعندما يُذكرون بعضهم يذكرون أنفسهم بالمأكولات التي يأكلونها أو بالمشروبات التي يشربونها أو بالليل الذي يسهرونه!!

أنت ذكّر نفسك طوال نهار رمضان أن هذا النهار الطويل ما أقصره في الدنيا وما أعظم أجره عند الله إن قبلك الله.

فتأتي المشاعر الجديدة أن حبس نفسك عن الطعام من أجله-سبحانه وتعالى-فتُلح عليه أن يقبل منك حبس نفسك عن الطعام، وأنك لم تحبسها من أجل العادة! ولا حبستها من باب أنك مع الناس!! فأنت حبستها لأنك تفكر في يومٍ طويل، حبسُك نفسك هنا سينفعك في ذاك اليوم الطويل؛ ولذلك كم خسر النائم؟ كم خسر اللاهي؟ ولا نعني بخسارته أنه لم يؤدِّ الفرض! لا، بل أدَّى الفرض وإن كان نائمًا، لكننا نتكلم عن الاحتساب وتفويت مضاعفة الأجر، ثم إن هذا الحبس مهما كان-بفضل الله-يتبعه ريّ وطعام وشراب ونعيم عظيم، نحن لم نُكلَّف ما لا نستطيعه بل كُلِّفنا ما هو يسير ووعدنا بأجورٌ عظيمة لا تحتمل عقولنا التفكير فيها.

فتصوري صيام مثلًا نافلة غير فرض مثل يوم عرفة، صيام العاشر من محرم، كم وقت النهار؟ 10 أو 12 ساعة ماذا وراؤه؟ مغفرة سنة كاملة أو سنتين! القضية كلها ساعات بسيطة حبَست نفسك فيها، لكن لتعرف أن ربك شكور.

فكّرِ في يوم عرفة وال10 من محرم من أجل أن تقيس عليه، تقول: أذنبت طوال السنة ذنوب لا أدركها، ومهما صمت مهما صمت ستكون ورائي ذنوب فتقوي قلبك وتقول: أن يا رب أحبس نفسي من أجل أن تغفر لي. فهذا الكلام الذي يقوله قلبك معناه أنه يحمل هم لقاء الله، وليس عبد غافل يفكر في الدنيا، ينطبق عليه كلام ربنا: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}[1] قالوا

(1) [سورة التكاثر: 1]

له: صم. صام مع الصائمين! لا، هو شخص يفكر في صحيفته، يفكر في تبييضها، فيجب ألَّا نغفل عن اليوم الآخر ونقول: لا يكلِّمنا أحد عن الموت!

كم في القبور من أهل نعيم لو جُمع نعيم أهل الأرض كلهم ما كان شيء في نعيمهم!

ففي القبور من هم منعَّمين بأيام قضوها في حياتهم أطاعوا الله فيها، ولو تقيسين مهما قِستِ الأيام التي تعيشينها في الحياة 70-80-90 سنة مهما طال الأمد، والقبور كم سيكون أهلها فيها؟

لو نظرنا للنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وصحابته الكرام، من 1400 عام في قبورهم، معناه أن الإنسان يفكر في هذا الشيء الطويل وليس التفكير السلبي والمرَضي الذي يسبب لنا الخوف الذي يمنعنا ويقطعنا عن العمل، لا، فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه[1]، ومَن أحبوا لقاء الله ستقول لهم الملائكة: {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}[2]،لا خوف عليكم فيما تستقبلونه ولا أنتم تحزنون على ما تركتموه فستأتيكم البشرى من الملائكة: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، هذا كله جَوّ أنت تُكوّنه لنفسك عندما يكون هذا الذي يهمك وتفكر في صحيفتك ولقاء الله والقبر والسؤال والثبات فيه ونعيمه فإنك لم تسمع عن العذاب فقط، بل سمعت عن النعيم، فلم لا تطمِّع نفسك في النعيم وتخوِّف نفسك من العذاب؟ والنفس لا تتأدب إلا بذلك، والله-عزَّ وجلَّ-أخبرنا عن ذلك، فإنه خلق نفوسنا ويعلم حالها، ففكر فيما ورائك، اتقوا الله كل نفس عليها أن تتقِ الله قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}[3] هذا منهج حياة، الغد هذا قريب، وما أطيبه إن كنت مؤمنًا! ما أطيبه! ملائكة على مد البصر تبشرك وتخرج النفس من البدن خروجًا يسيرًا، ما أطيب يوم القيامة على المؤمن! الحساب على المؤمن كما بين الظهر والعصر[4]، في رواية أخرى يجعله الله خفيف على المؤمن كخفة الصلاة المكتوبة وكل هذا المعلوم يقينًا سيكون، فإذا كان يقينًا استعد له بالانشغال به، فكِّر فيه وأنت على فراشك وإذا أطفأت النور وشعرت برعدة في قلبك من التفكير في الظلمة والانفراد؛ فهذه الرعدة تكفر عنك خطاياك كما قال أبو ذر تحطها كما يحط الخريف أوراق الشجر؛ لماذا يقول ذلك أبو ذر؟ ذلك من فقهه-رحمه الله-لأن مَن اهتم بشأن الآخرة أحبه الله، من فكّر في لقاء الله واستعد واهتم كان يسير في الطريق الصحيح، فأصحبت حسناته مضاعفة وأصبحت حتى مشاعرة القلبية من حب وخوف ورجاء ستكون كلها في ميزان هذا العبد ومضاعف في حقه، وعلى كل حال كل ذلك واضح في حديث رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ-عَزَّ وَجَلَّ-: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي))[5]

(1) رواه مسلم في صحيحه (2685)، نص الحديث: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه).

(2) [سورة الأعراف: 49]

(3) [سورة الحشر: 18]

(4) حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، نصه قال صلى الله عليه وسلم: يوم القيامة كقدر ما بين الظهر والعصر ."

(5) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام (1151)

انظر إلى قوله: (من أجلِي) فأنت ستزيد حسناتك كلَّما فكرت أنك تركت هذا المشروب من أجل الله، صُمت من أجل رضاه، فتصوَّر كلَّما تذكرت أو شعرت بالعطش أو رأيت الطعام أو شعرت بالجوع أو تحركت نفسك للأكل بعد ذلك ترد على نفسك وتقول: من أجل الله، أترك من أجل رضاه. فهذا سيكون جزاؤه كما قال تعالى: (فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ) ليس مثل بقية الأعمال من الحسنة إلى سبعمائة، بل قال: (فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ) هذه المشاعر التي تفكر فيها.

ولذلك طهِّر وجدانك من الانشغال بالدنيا، طهِّر وجدانك من أن تفكر في مصالح الدنيا في رمضان؛ فطهارة الوجدان تجعلك تشتغل بما لله عليك من حقوق.

لكن لو بقي القلب منشغلًا بما في الدنيا من مقاصد ونقسم الجدول هذه العشر أيام من أجل أن نفعل كذا في الدنيا والثانية كذا في الدنيا والثالثة كذا...يصبح القلب مشتَّت بما في الدنيا، مشغول بها!!

والشيطان يجعلك تتمتع بالتفكير بالدنيا، تتمتع عندما تفكر ماذا ستشتري، نحن نتمتع بالتفكير وعندما نذهب للسوق نتعب ونسقط! إذا كان يتعبنا المشي في الأسواق فلماذا يشعرنا الشيطان بالمتعة بمجرد التفكير؟

لا تنسَ أن هذا الذي ترك طعامه وشرابه تركه لأجل الله ويذكر نفسه دائمًا أنه من أجل الله.

وذلك أختص الله الصيام له مضاعفة الأجر والثواب.

على كل حال، نتأمل هذه الآية لنعود مرة أخرى ونؤكد على أنفسنا أمر مهم وهو أن إرادتنا لطهارة قلوبنا لن تخص فقط استقبال رمضان إنما إرادتنا لطهارة قلوبنا ستكون لكل العام بل لكل الحياة.

ننظر لهذه الآية في سورة المدثر خوطب بها النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وجميع الناس، قال تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}[1] نريد أن نفهم معنى تطهير الثياب، خصوصًا إن السورة مكية، ونزلت في أوائل ما نزل على النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وكانت مكية ولم تفرض الصلاة بعد، تعالوا لنفهم معنى أن يؤمر النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-بتطهير ثيابه كما ذكر أهل العلم؟

قال ابن القيم وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم: إن المراد بالثياب هنا: "القلب".

نذكر معنى الطهارة ثم نذكر كلام العرب في معنى الثياب:

المراد بالطهارة: إصلاح الأعمال والأخلاق.

{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} أي: أصلح قلبك، إذا صلح قلبك صلحت كل أعمالك وأخلاقك وردود أفعالك فمثلًا لو صلح قلبك وفكرت في الآخرة وما يكون في شأنها وأتيت في موقف عام وهذا الموقف ليس له علاقة برمضان بل له علاقة بحياتنا كلها وتسمع فيما تسمع وتعتقد من كلام الله قوله تعالى: {إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا

(1) [سورة المدّثر: 4]

قَدِيرًا}[1] ثم تفكر بعقلك، قلبك فيه ضغينة على أحد، وهذا الشخص لم يعتذر ولم يتأدب ولم يفعل شيء، ووجدت نفسك تفكر في مواجهته من أجل أن تُدينه وتأخذ حقك، ويمكن أن يكون حقه أعظم من حقك-والله أعلم بصاحب الحق-، أو عندك اختيار ثانٍ؛ لأنك تفكر في لقاء الله: أن تعفو عنه فيعاملك الله بالعفو، يمحو عنك سيئاتك ثم إن الموقف الذي بينك وبين هذا مهما عظُم فلن يُشكِّل الدنيا كلها، وأنت تعيش في مخرج منه والله-عزَّ وجلَّ-جعل لك مخرجًا.

فالمقصد عندما يكون قلبك فيه ضغينةٍ على أحد، طهِّر قلبك بأعمال يحبها الله وسيعاملك الله بالعفو لو عاملت بالعفو.

لذلك تذكرون موقف أبو بكر-رضي الله عنه-عندما حبس المال عن ابن خالته؛ بسبب أنه تكلم في أمِّنا عائشة-رضي الله عنها-الطاهرة المطهرة، فماذا قيل له؟ {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[2]، فماذا كان من أبو بكر-رضي الله عنه-قال: بلى، نحب. معناه سنترك أي شيء هنا في الدنيا من أجل مغفرة الله، من أجل عفو الله قوم يحملون هم لقاء الله حتى لو حصل في قلوبهم شيء، إلَّا أنهم بمجرَّد أن يُذَّكروا يتذكَّرون.

المقصد من طهارة الوجدان: طهِّر قلبك من الأمور التي تسبِّب لك الانشغال بالدنيا، وفكر في مقابلها في الآخرة.

طهر قلبك من الأمور التي تسبب انشغالك بالدنيا، ومما يشغلك في الدنيا اعتداء هذا وكلام هذا وموقف هذا، فهذه الأمور ستبقى تشغلك بالدنيا، ولا تخاف إن أتى الشيطان فخوفك وقال لك: إنك تعفو في كل مرة وهم يزيدون!! اعلم أن الذي يرد شرَّهم هو الله، لكنك سيجتمع لك أمرين:

- ✓ أن الله سيعفو عنك.
- ✓ وأن الله سيرد شرَّهم.

أنت تقول: أنا جرَّبت وزاد حالهم. نقول: أنتَ تعفو عمَّن ظلمك أو أساء إليك وأنت تقصد وجه الله، هذا الشرط الآن وليس لأنك لست مستطيع! لا، تريد أن يعفوا الله عنك. وأنت تقول هذا الكلام بلسانك، ثم تنتظر أن يختبرك الله-عزَّ وجلَّ-مباشرةً، قال تعالى: {الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[3]

مرة أخرى، أنت الآن تقول: أنا سأطهِّر وجداني ولن أشغل نفسي بالناس وبكلامهم وأنا عفوت عنك، لا أريد منك شيئًا المهم اذهب عن طريقي حتى أبقى أفكر في الآخرة، وأريد أن يعفوا الله عنِّي بدلًا من أن آخذ حقِّي هنا. فإذا عفا عنك

(1) [سورة النساء: 149]
(2) [سورة النور: 22]
(3) [سورة العنكبوت: 2]

اجتمع لك الحسنيين: رد شرَّه عنك وفي نفس الوقت عفا عنك. أنت تقول هذا الكلام لنفسك ويأتي اليوم التالي ويظلمك! فتقول: هذا آخر عفوي عنك!

نقول: لا تظن أن أحدًا يدّعي دَعوَى ويُترك، لا تحسب أنك تقول: أنا عفوت عنك وأنتظر أجر الله! لا تحسب أن تقول: آمنت ولا تُختبر، غدًا يتسلط عليك وأنت صابر وبعده وبعده وأنت صابر ثم بعد ذلك يقطع الله شره عنك؛ لأنك أظهرت صدقًا في عفوك!

فأين يقف الناس ويتعثَّرون؟

يعفون في البداية ثم عندما يرون هذا الذي عفو عنه ساء حاله يقولون: هذا لا ينفع معه، ولا يفهموا أن الله يسلِّطه عليهم اختبارًا لصدقهم، فعفو الله العظيم تريد أن تناله من أجل أنك فقط قلت: عفوت عنه من طرف لسانك؟!

لا، لا بد أن يظهر ما في وجدانك من طهارة، وهو يظلم وأنت تتغافل عنه وتتشاغل عنه وتقول: عندما ألقى الله العفو، عندما ألقى الله العفو، ما أطيب عفوه في ذاك الموقف، ما أطيب ألَّا أحاسب عن شيء في ذاك الموقف.

ما أطيب أن تُستر عيوبي وتُحمى ذنوبي في هذا الموقف.

عظيم الموقف ولذلك أنت تحمل همه، ولا تتشاغل بهذا الذي هنا؛ لأن قلب الإنسان عندما يسمو يصبح الله العليّ قِبلة قَلبه، فيصبح ليست له علاقة بهذا الشيء الدنيّ، لكن عندما يكون القلب مشتَّت وكل يوم له قبلة يصبح يريد حقه من هذا، ويريد أن يعتدي على هذا، ويزيد أي: إذا جهلوا هو يجهل أكثر منهم وهذا كله؛ لأن النفس ثائرة والشيطان يستغل هذا الغضب ويزيده.

إذًا ثيابك طهِّرها (وثيابك) أي: قلبك.

قال قتادة ومجاهد: "ونفسك فطهرها من الذنب".

أي أن طهارة وجدانك هي شأنك الأساس الذي تعيش حوله، وهي من أول الأوامر التي أُمر بها النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وإذا كان النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-أُمر بها فنحن من باب أولى.

والعرب كانوا يقولون: "الثياب عبارة عن النفس" والعرب تكني بالثياب عن النفس، لا يقولون له: نفسك. إنما يقولون له ثوبك، وبأي شيء أمر الله-سبحانه-النبي-صلى الله عليه وسلم-؟ قال: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} بطهارة الثوب أي نفسك طهِّرها، واشتغل بها واترك عنك الخلق، طهِّر نفسك وفكِّر في رضا ربك واعلم أن الله ينظر إلى قلبك فطهِّره وزده إيمانًا فيصبح قلبك إناءً صالح لأن يزيد إيمانًا، أما إن كان ملوث فمهما أضفت إليه من أعمال سيبقى هذا التلوُّث، يلوِّث كل شيء يأتيه.

لكن عندما يصبح طاهرًا يكسب المزيد من الحسنات ويزيد الله–عزَّ وجلَّ–إيمان العبد.

قال السُّدي: "يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب".

إذًا الآية واضحة.

وصلنا إلى خاتمة اللقاء وخرجنا بشيء مهم من النقاش، هو:

أن طهارة الوجدان استعدادًا لرمضان واستعدادًا إلى لقاء الله، أي أننا نريد أن نطهِّر وجداننا بالإخلاص وننقِّه، ثم إن إرادة وجه الله والتفكير في لقائه ليس فقط في رمضان وإنما ذلك خط سير الإنسان طيلة الحياة، عينه مراقبة لقلبه أثناء عمله سواءً عمله الظاهر أو الخفي في قلبه، تراقبه وتُحدث نفسك: ماذا تريد بالعمل؟

وعندما يختبرك الله؛ يُظهر لك ما في قلبك مِن خَبث؟ أنت الآن طريقك أن تعلِّم الناس، أو تتصدق على الناس، ثم قمت وتصدقت على ناس في الحرم–ونازعوك وأخذوا أغراضك–فتقول: أنا أستحق هذا لأني تصدقت عليكم! فعندما يحصل مثل هذا الموقف مرَّة ثانية، كن حريصًا واعرف كيف تتصرف لكن لا تحتقرهم، لا تجعل الطاعة توجب لك معاصي، طهر قلبك مباشرةً؛ لأن الطريق صعب وليس باليسير.

إجابة على سؤال أحد الحاضرات:

اعرف أن الله يبتليك وينظر إلى قلبك، فعندما تتصدق لا تنظر على أنك أحسن منهم، والمفترض أن يحترموك، لا، ابتلاك بهم وعندما ابتلاك بهم المفترض أن تطلب من الله–عزَّ وجلَّ–أن يقبل ما فعلت، ويغفر لهم ما صنعوا فيك، وتسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يكون ما حدث لك من أي شيء زيادة كفارة وقبول لعملك، فلا تحتقر الناس ولا تجعل الطاعة تسبب لك المعصية.

أحيانًا كثيرة تظهر نياتنا الحقيقية، مثلًا يكون عندكِ مستخدمة في أي مكان ولها راتبها لكنك أخرجتِ لها في الصباح مال زائد، تقولين لنفسك إنها صدقة، لكنك أيضًا تريدين منها أن تزيد ولاءً لكِ وتزيد عملًا ولا تتركك! ثم تقول لكِ في ليلة نفس اليوم: معذرة اليوم سأترك العمل! في هذه اللحظة تقولين لنفسك: هل هذا جزائي لأني أعطيتك! وتقولين الكلمات التي تُظهر أنكِ لم تُعطِها لوجه الله! فلا يصح بعد أن يتَّضح لكِ الموقف أن تقولي: الناس لا يستحقون وتغيروا ولم يكونوا كذلك. لا، بل التي تغيرت حقيقة هي مقاصدنا، أصبحنا نغش أنفسنا نقصد أمورًا ونخدع أنفسنا ونضعها في يده على أنها صدقة، ونحن في الحقيقة نريد مصالحنا من وراء هذا الشخص! أو نعطيه ليشعر أن لنا مكانة ولنا جاه، فكلها أمراض، إذا ما راجعت وركّزت عينك على قلبك ستكون النتيجة أن كل هذا سيذهب هباءً منثورًا لا قيمة له، فما لنا إلا أن نتحسَّس نياتنا، نتحسس قلوبنا، وما لنا إلا أن ندعو ربنا أن يقبل أعمالنا ويرزقنا الإخلاص، وما لنا إلا أن نتفحَّص

اختبارات الله، فهو لا يتركك–سبحانه وتعالى–لا يريد منك أن تخرج من الدنيا وأنت راسب، بل يعيد لك الاختبار ويبيّن لك نتيجتك التي الماضية.

فأنتِ حينما يأتيك الاختبار الجديد تكون عينك مفتوحة أنا لو أريد وجه الله حقًا، فلن أقصد هؤلاء في العطية، تصوري في هذا الموقف كيف ستربّين نفسك، وأنت أعطيتها من أجل مصلحتك، وغششتِ نفسك واختلطت نيَّتك؟ تزيدينها عطية تأديبًا لنفسك، أدبي نفسك. وعندما تتصدقين بمعمول في الحرم–مثلًا–قدمتِ للناس هذا الشيء الطيب المناسب، ثم تبقى حبتان ووضعتِهما في المنديل في حقيبتك، وقلتِ: أدَّخرها لنفسي إذا جعت. ثم نسيتِها ووجدتِها قد تفتتت داخل حقيبتك! هذا درس، لا تبخل، أخرجه كله وسيأتيك العوض عنه كله، أعطِها ولا تخف من الجوع ستطعم وتشرب، وماء زمزم طعام طُعم وشراب سُقم.

نعود إلى مسألة طهارة الوجدان:

طَهَارَةُ القَلْبِ تكون بأي شيء؟

1. بِالتَّوبَةِ

تبدأ طهارة القلب ومحو ما فيه من أدران بالتوبة، فكما أن الماء يمحو أدران البدن، كذلك التوبة تمحو الذنوب، والتوبة يجب أن تكون صادقة حتى أنك تشعر أن قلبك يتقطع من ألم الذنب، واعلم أن اختبار صدق التوبة يأتي مباشرةً للتائب، فنحن لا ننفك أبدًا عن الاختبارات، وانظروا إلى أصحاب القصة التي ذكرناها الآن في سورة التوبة الثلاثة الذين خُلِّفوا، هؤلاء مر أحدهم بموقفٍ يبين أن التوبة تُختبر، وكلهم اشتركوا في هذا الموقف في أنهم حُبسوا عن أهلهم والكلام معهم خمسين يومًا، ثم أتى لأحدهم خطاب من الأعداء يقول:

[ما جعلك الله في دار ضيعة، اِلحق بنا نجعل لك ونجعل لك] اختبار، هو نجح في الاختبار وألقى بها في التنور.

الموقف الآن الذي نفهمه أنك تقول: يا رب أنا سأترك هذا العمل ولن أفعله، سأترك سوء الظن ولن أعود إليه وسأترك وسأترك...مباشرةً غدًا تتوفر لك كل الظروف التي تقع فيها في نفس العمل! لماذا توفَّرت هذه الظروف؟ عبد يقول: يا ربي، أنا تُبت فلمَ كل هذه الظروف؟ ما اسم هذه الظروف؟ اختبار، فهل أنت صادق في توبتك؟ لا تحسب أنك تُترك تقول: آمنت أو أنا تائب أو أنا موقن بلسانك فقط، ليس كلامًا فحسب، والمنافقين هم الذين يخادعون الله، هم الذين يقولون بألسنتهم ما لا يستقر في أفئدتهم، وأنت تقول: كانت التوبة مستقرة في فؤادي! لو كانت التوبة مستقرة ستفهم أنه اختبار وتتخطَّاه.

إذا لم تستقر التوبة في قلبك أول فرصة جديدة للقيام بالذنب ستفعل، المقصد لا تُخادع الله.

بالاتفاق سنُقبل على شهر كريم، الطريق والاستعداد له هو: أن يطهر قلبك من الدنيا وما يحيط بها، ويمتلئ قلبك بالتفكير في الله ورضاه وقصده-سبحانه وتعالى-الآن السؤال يقول:

سأبتدئ الطريق وأشقه بأي شيء؟ بالتوبة، كما نطهر البدن بالماء، نطهر القلب بالتوبة، هذا أول الطريق.

انظروا إلى كلام سلمان الفارسي-سأختصر الكلام من أجل أن يلم الأمر-:

قال سلمان الفارسي: "لكل امرئ جوّاني وبرّاني-داخل وخارج-فمن يصلح جوّانيه، يصلح الله برّانيه، ومن يفسد جوّانيه، يفسد الله-عزَّ وجلَّ-برّانيه، {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُم}[1]

الخطوة الثانية التي نطهر بها قلوبنا:

2. الإصلاح

العمل على إصلاح القلب-الخطوة الأولى كانت التوبة، تاب الإنسان وصدق-يا رب اجعلنا من الصادقين-

الأمر الثاني الإصلاح:

أي أنك ستضع يدك على الخراب الذي تبت منه وتصلحه، مثلًا شخص مبتلى بسوء الظن في الله وفي الناس، أين خرابه الآن؟ نفترض أنه يسيء الظن في الله-عزَّ وجلَّ-، لا يظن أن الله سيرزقه أو يعطيه! أين خرابه؟ هي هذه النقطة، هيا أصلح جوانيك، بمعنى اقرأ وتعلَّم وناقش نفسك وفهمها واعرض عليها مواقف وأحوال من أجل أن يحصل الصلاح، فكثرة دخول الحق إلى القلب يصلحه.

وكثرة التفكر تصلحه.

مثلًا تعال إلى سوء الظن في الناس، الله ربَّاك وربَّاك وأسأت في هذا الظن ثم أظهره الله بريئًا، أنت فهمت أن سوء الظن عندك ذنب فتبت عمَّا مضى ووعدت الله-عزَّ وجلَّ-أنك لن تفعل، فقط كلام؟ أنت تبت وطلبت من الله أن يغفر لك، لكن كيف سينصلح قلبك؟ كيف سيترك قلبك سوء الظن؟ لا بد أن ترد على القلب أمورًا تجعله يبغض سوء الظن فماذا تفعل؟

- ✓ تقرأ في كتاب الله.
- ✓ تقرأ في سنَّة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-.
- ✓ تقرأ في سِيَر السلف.

(1) [سورة الصف: 5]

✓ تتعلَّم، تسمع إلى أن تُدخل في قلبك ما يصلحه.

معنى ذلك بعد التوبة حدِّد نقاط ضعفك، وأصلح قلبك.

هذا أول الإصلاح، أن أُكثر الواردات الصالحة على القلب ليصلح القلب.

الإصلاح يأخذ مني ثلاثة نقاط:

أولًا: طهارة القلب ستكون بالتوبة (توبة عامة وتوبة خاصة).

توبة خاصة: أي أنك شخص تفهم أمراضك: تحسد، تحقد، تسيء الظن مع الخلق أو تتعامل مع الله بأسلوب غير لائق أو تنام عن صلاة الفجر أو مثلًا تترك بعض الواجبات أو تعق والديك. كل هذه أعمال فسد فيها القلب.

ماذا تفعل في فساد القلب؟ تتوب وتضع يدك على الفساد وتكثر من الواردات الصالحة على قلبك من أجل أن تنبهك أو تخوفك أو تشوقك من أجل أن تعمل أكثر في العمل الصالح أي لا تترك نقطة الضعف كما هي نقطة ضعف، لا بد من أن تكثر الواردات التي تصلحها من العلم.

كل هذه النقاط التي سأقولها تحت النقطة الثانية وهي إصلاح القلب، سأتوب وأصلح قلبي.

❖ كيف يكون الإصلاح؟ بثلاث نقاط.

أول الإصلاح للقلب: تعلَّم، أدخل على القلب واردات من الحق؛ من أجل أن يستيقظ القلب وتصبح عنده مناعة.

❖ الأمر الأول: احذر الاختبارات حول هذا الفساد أي: كن منتبهًا، الآن مثلًا تبت عن عقوق الوالدين، غدًا يتسلط عليك أحد والديك بصراخ، قل لنفسك: هذا اختبار.

❖ الأمر الثاني: كثِّر الواردات من كلام الله وكلام الرسول عن بر الوالدين وأجرهما وكيفية الصبر عليهما، والمفترض كيف يكون موقفنا حتى لو كانوا مشركين. أكثر من هذه الواردات، لكن هل يصلح القلب بمجرَّد هذا العلم؟

لا، احذر من الامتحان ستأتيك امتحانات على هذه.

أنت ابتليت بأنك تحقد على الناس بسبب استفزازهم لك؛ لأجل ذلك يسلِّط الله عليك الناس يستفزونك، أنت سريع الحقد فأنت تبت الآن عن الحقد وسمعت عن العفو وآثاره وسمعت وسمعت، بعد ذلك أول موقف تعاشر الناس فيه يأتيك

من يستفزك، أنت ماذا تفعل؟ تقول لنفسك: هذا اختبار، افعل ما يرضي الله افعل ما سمعته وفهمته ومارسته معرفةً الآن مارسه، إذًا الإصلاح يكون بإكثار الواردات والأمر الثاني بالتنبه للاختبارات.

❖ الأمر الثالث: الحذر من الصحبة الممرضة، كثير من الذنوب نقع فيها بسبب الصحبة، تكونين امرأة مطيعة للزوج وكل ما يأمرك بشيء تطيعينه. ثم يتسلَّط عليكِ أحد يحرشك يقول: كل شيء عليك، ولا تقولين غير سمعنا وأطعنا! فعندما يحرِّشك تفعلين أفعالًا خارجة عن العقل؛ لأن الإنسان الذي ليس من طبعه أن يعصي حتى عندما يريد أن يعصي لا يعرف، يقوم بعمل تصرفات لا تليق!

فأنتِ عندما تتوبين إلى الله من معصية الزوج ومن عناده ومن احتقاره ومن كل شيء انتقلت لك العدوة به! تبتِ، ثم يأتي موقف يستفزك منه، والذي سبب هذا أن جارتك مثلًا قالت لك هذا الكلام، فقولي لنفسك: هذا اختبار.

والأمر الثالث: هذه التي حرَّشتكِ، اقطعي علاقتك بها؛ لأن الصحبة كما أخبر النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-إما كحامل المسك وإما كنافخ الكير[1] كثير من الأمراض انتشرت في مجتمعات معينة بسبب الصحبة، فهناك أمراض معدية كالحقد والحسد والغيبة والتنابز بالألقاب والنظر للناس وكثير من الأمراض التي سببها الصحبة، لا يكون هذا حالها، لكن مورس أمامها المرض وتدرَّبت عليه.

هذا شيء خطير يمر على الإنسان ويكون في سلامة منه، لكنه يمرض بسبب أصحابه.

اتفقنا على أمور في طهارة الوجدان:

أولًا: التوبة ثم الإصلاح ثم الحراسة.

أولًا/ كما نغسل أبداننا بالماء نغسل قلوبنا بالتوبة.

ثانيًا/ بإصلاح القلب كما أشار سلمان الفارسي-رضي الله عنه-في كلامه السابق، أنت لديك جوَّاني وبرَّاني.

فأصلح جوَّانيك يصلح الله برَّانيك وبدنك يطيعك، كيف أصلح جوَّاني؟ بثلاثة أمور، ولاحظي أن هذا يكون بعد التوبة لأنك بعد التوبة حدَّدت نقاط ضعفك فيأتي الإصلاح بعد التوبة. ما السبيل إلى الإصلاح؟ كثرة الواردات الصالحة على القلب تجاه هذا الأمر، أنت بين قوسين تضرب لنفسك مثلًا حتى لو قرأتِه مرة أخرى تفهمه، ما معنى كثرة الواردات الصالحة؟ اقرئي وابحثي في كلام الله وكلام رسوله عن طاعة الوالدين رغِّبي نفسك وخوفيها من الضد؟

الأمر الثاني: احذري من الاختبارات لأنك بعض التوبة ستأتيك الاختبارات.

(1) أخرجه البخاري (5534) واللفظ له، ومسلم (2628) نص الحديث (الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة.

الأمر الثالث: احذري من الصحبة.

ثالثًا/ الحراسة.

قال أبو حفص النيسابوري: "حرستُ قلبي عشرين سنة، ثم حرسني عشرين سنة"!

عندك مشاكل في قلبك وتبتِ منها وحاولتِ أن تصلحيها فلن نكتفي بها، بل هناك أمور لم تكوني من أهلها ولا تفعليها ولا تفكري فيها لكن بدأت تخطر على بالك، مثلًا من زميلاتك من تقول لكِ: أنت لا تتجسَّسي على جوال زوجك ولا تفتشيه؟ شيء لم يخطر على بالك، ولا أنت تتجسسين ولا هذا طبعك ولا أصلًا ذنب مر عليك سابقًا، بل خاطرة تمر أحيانًا من الصحبة وأحيانًا من غيرها، أو من الشيطان الرجيم، انتبهي من هذه الخواطر عندما يلقيها انتبهي، لا تسكتِ لها ولا تفكِّري فيها، انظري الخطر يكون بمجرد السماح لها بالاستقرار.

فإذا مرّت الخاطرة مباشرة ادفعيها واستعيذي بالله من الشيطان الرجيم، إذا مرَّت، فاعرفي أن القلب سيصبح خربًا إن سكتِ لها، أنتِ تقولين: أنا لم أفعل شيئًا فقط مستلقية على فراشي وأُفكّر، نقول: تفكرين أي دخل العدو الحصن، صحيح لم أفتح له الباب على مصراعيه لكنه سينخر وينخر وينخر حتى أنت بنفسك تفتح له الباب.

فمن أجل أن يتطهر الوجدان ثالثًا: احرس قلبك من الخواطر؛ لأن مبدأ كل مصيبة الخاطرة.

لابد أن نقتنع أن مبدأ كل مصيبة تقع في القلب يكون وراءها ذنوب الخاطرة.

الخواطر تعصف بالقلب فيذهب الإنسان وراء خواطره لدرجة أنه يذهب وراء ذلك كأنه آلة، مجرد أن تأتيه الفرصة يفعل الأفعال الباطلة كما كان يفكر به.

إذًا ماذا سنفعل حتى نطهر وجداننا؟

الحراسة واعلم أنه كلما طالت حراستك على قلبك ومنعت الخواطر، سيصبح طبع قلبك هو الذي يحرسك ويمنعك، وحتى تتصوروا هذا الأمر سأضرب مثالًا:

الآن كلكم تعرفون من النساء والرجال من تقدموا في العمر لكنهم يقومون الليل كأنهم ساعة-هؤلاء موجودون في المجتمع-تجده الساعة الثالثة-مثلا-يقوم من غير منبه ولا غيره! ماذا فعل طوال حياته؟ جاهد، حرس قلبه من الكسل، عشرين ثلاثين سنة وهو يحرس نفسه من الكسل أي منذ كان في العشرين من عمره حرس نفسه إلى أن أصبح عمره 55 عامًا أي لمدة 20 عام أو 30 عام، المهم أنك تجد مَن حرس قلبه من الكسل ومنعه في حضر أو في سفر في الصيف أو في الشتاء يقوم الليل.

بسبب حراسته لقلبه، فلا تجعل نفسك هي الأمير! كما ذكرنا أول يوم، ولا تجعل هواك هو الذي يتملَّك على قلبك، لا تستجب لنفسك، كلَّما قالت لك نفسك: افعل، تفعل!

إنما احرس قلبك من الخواطر ومن الشهوات ينطفئ طعمها، ويصبح قلبك هو الذي يحرسك.

على كل حال، هذا ما تيسر ذكره في هذه الدورة، أسأل الله أن يبارك لي ولكم وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا ويبلغنا رمضان ونحن والمسلمين في خير حال، اللهم آمين!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفهرس

اللقاء الأول 1
اللقاء الثاني 19
اللقاء الثالث 37